مغامرات

السندباد البحري

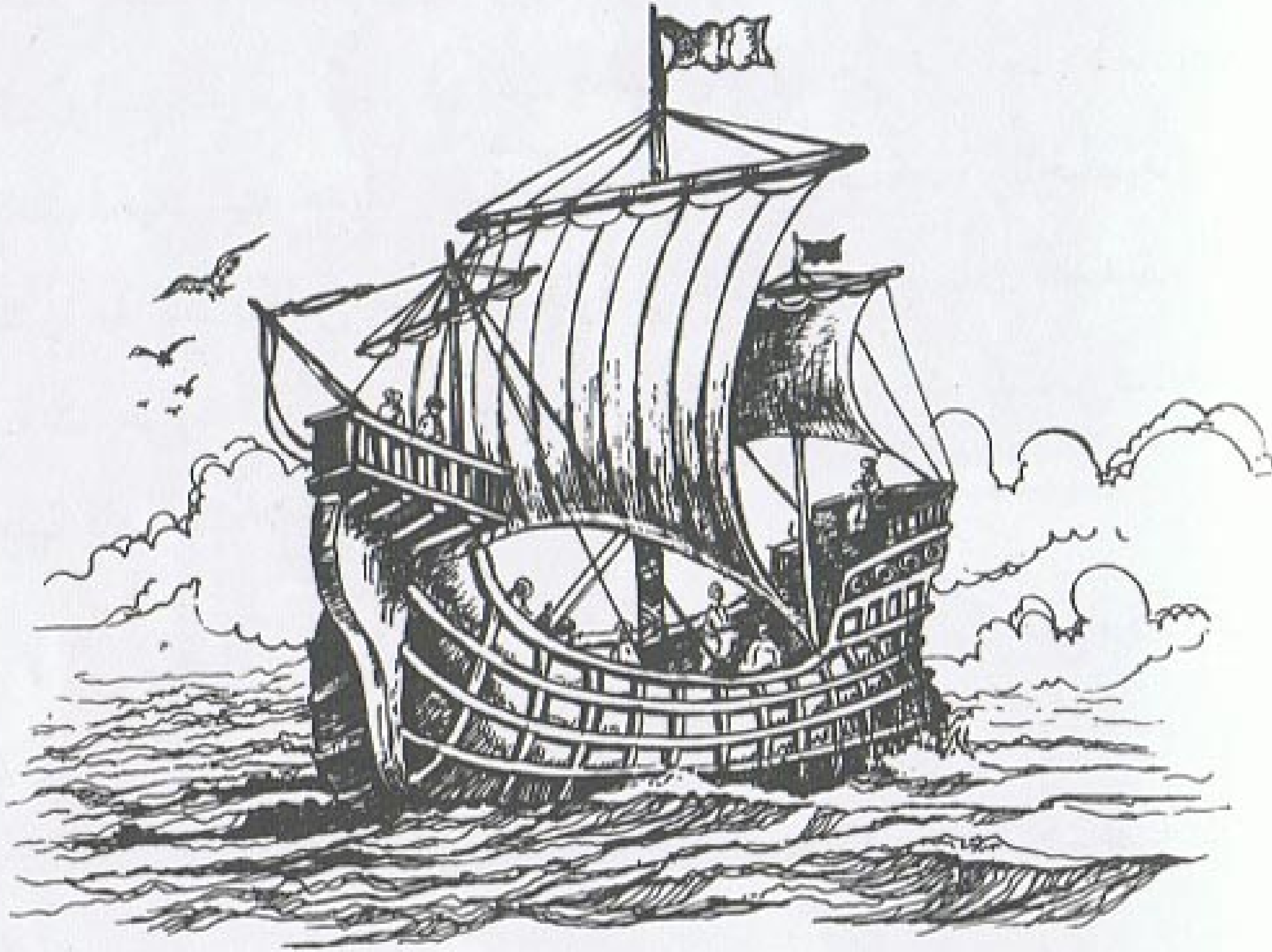


المغامرات المثيرة





مُغامرات السِّنْدبادِ البحْري



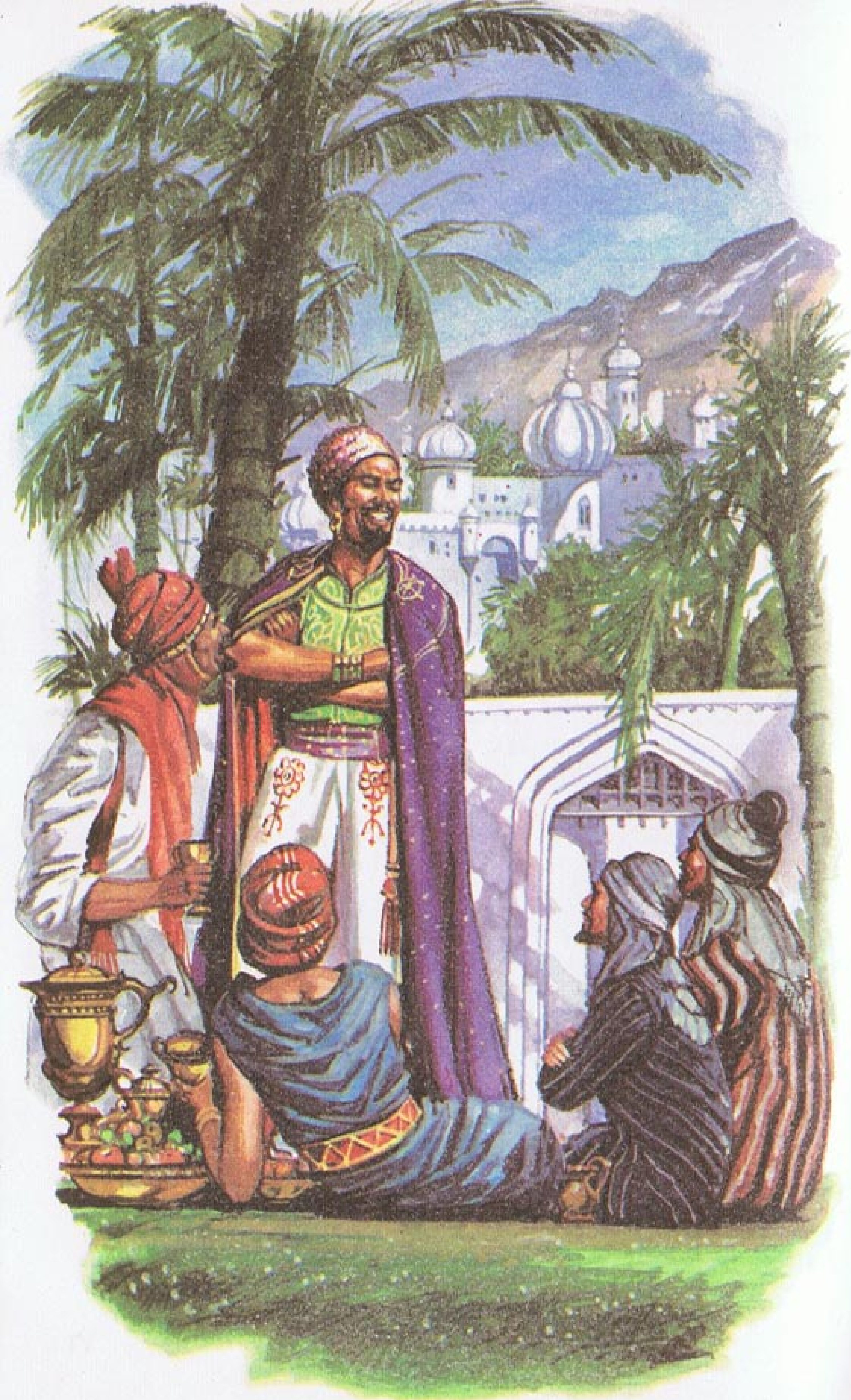
إعداد : حامِد علي عطاري
رُسُوم: دُوغلاس پوسْت
غلاف: حسَن عبد السَّتار

مَكتبة لبْنان
بَيروت

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٤ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٥٢-٩

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة



الرِّحْلةُ الأُولى

عاشَ السِّنْدِبادُ البَحْريُّ بِمَدينةِ بَغْدادَ ، في عَهْدِ الخَليفةِ هارونَ الرَّشيدِ . وَكانَ واسِعَ الثَّراءِ ، يُقيمُ في بَيتٍ فَخْمٍ في أَرْقى حَيٍّ مِنْ أَحْياءِ العاصِمةِ . وَكانَتْ تُحيطُ بِبَيتِهِ حَديقةٌ رَحْبةٌ غَنّاءُ ، أَشْجارُها باسِقةٌ ، وَرَياحينُها فائِحةٌ . وَكَثيرًا ما كانَ يَجْلِسُ هوَ وَأَصْدِقاؤُهُ في ظِلالِ أَشْجارِ تِلْكَ الحَديقةِ كُلَّما اشْتَدَّتْ حَرارةُ الجَوِّ . وَها نَحْنُ نُورِدُ قِصَّةَ المُغامَراتِ بِلِسانِ صاحِبِها ، يَرْويها لِأَصْدِقائِهِ . لِنَسْتَمِعْ إِلَيْهِ :

« إِنِّي ثَرِيٌّ الآنَ ، وَلٰكِنِّي لَمْ أَكُنْ كَذٰلِكَ دائِمًا ؛ بَلْ جاءَ عَلَيَّ وَقْتٌ كُنْتُ فِيْهِ فَقيرًا جِدًّا ، لا أَعْرِفُ لِلسَّعادةِ مَعْنًى . وَفي رِحْلَتي الأُولى صادَفْتُ الأَهْوالَ ، وَاحْتَمَلْتُ المَشَقّاتِ ، وَانْتابَتْني المَخاوِفُ . وَإِلَيْكُمْ قِصَّةَ الرِّحْلةِ الأُولى . »

كُنْتُ آنَذاكَ شابًّا طائِشًا ، شَأْنَ أَمْثالي مِنَ الشَّبابِ الَّذين يُبَدِّدونَ المالَ وَالوَقْتَ هَباءً . وَلَمّا ساءَتْ بيَ الأَحْوالُ ، أَقْنَعْتُ نَفْسي بِضَرورةِ العَمَلِ لِلْحُصولِ عَلى المالِ . وَلِتَحْقيقِ ذٰلِكَ بِعْتُ بَيْتي وَما أَمْلِكُ لِقاءَ ثَلاثةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، اشْتَرَيتُ بِها أَنْفَسَ المَلْبوساتِ وَأَغْلى البَضائِعِ ، وَحَمَلْتُها إِلى البَصْرةِ . وَفي البَصْرةِ الْتَقَيتُ رُبّانَ سَفينةٍ ، وَتَبادَلْتُ وَإِيّاهُ الحَديثَ .

وَمِمّا قالَهُ لي : « سَتُقْلِعُ ٱلسَّفينةُ ٱلأُسْبوعَ ٱلقادِمَ ، وَعَلَيْها سِتَّةٌ مِنَ ٱلتُّجّارِ وَبَضائِعُهُمْ . وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى بِلادِ ٱلشَّرْقِ ٱلأَقْصى وَجُزُرِهِ ، حَيْثُ يَبيعُ ٱلتُّجّارُ بِضاعَتَهُمْ ، وَيَبْتاعونَ ٱلجَواهِرَ وَنَفائِسَ ٱلشَّرْقِ لِيَبيعوها في بِلادِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ رِحْلَتِهِمْ . »

لَمّا ٱنْتَهى ٱلرُّبّانُ مِنْ كَلامِهِ ، سَأَلْتُهُ : « هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَأْخُذَ عَلى سَفينَتِكَ تاجِرًا آخَرَ ؟ لَيْسَ لَدَيَّ إِلّا بِضْعَةُ صَناديقَ ، وَسَأَدْفَعُ لَكَ نَصيبَكَ مِمّا سَأَنالُهُ مِنْ أَرْباحٍ . » فَوافَقَ ٱلرُّبّانُ عَلى ذٰلِكَ .

في ٱلأُسْبوعِ ٱلتّالي ، أَبْحَرَتِ ٱلسَّفينةُ في شَطِّ ٱلعَرَبِ ، ثُمَّ عَبَرَتِ ٱلخَليجَ ٱلعَرَبِيَّ إلى ٱلمُحيطِ ٱلهِنْدِيِّ . وَطالَ سَيْرُنا في ٱلبَحْرِ أَيّامًا بِلَياليها . وَكُنّا نَتَوَقَّفُ في بَعْضِ ٱلمَوانِئِ وَٱلجُزُرِ فَنُقايِضُ عَلى بَضائِعِنا . وَذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتِ ٱلسَّفينةُ عَلى شاطِئِ جَزيرةٍ غَنّاءَ . وَكانَ ٱلرُّبّانُ يَأْمُلُ أَنْ يَحْصُلَ عَلى ٱلماءِ ٱلعَذْبِ مِنْها ، وَلِهٰذا أَرْسى سَفينَتَهُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ ٱليابِسَةِ . وَقَصَدَ ٱلكَثيرونَ مِنّا ٱلشّاطِئَ بَحْثًا عَنِ ٱلماءِ ٱلعَذْبِ ، وَرَغْبَةً في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرةِ . وَقَدْ حَمَلَ ٱلبَحّارةُ قُدورَ ٱلماءِ ٱلكَبيرةَ لِمَلْئِها ، عَلى حينَ أَخَذْتُ أَجولُ في ٱلجَزيرةِ وَأَتَمَتَّعُ بِمَناظِرِها . وَقَدْ حَلا لِبَعْضِ ٱلبَحّارةِ وَٱلتُّجّارِ أَنْ يَجْمَعوا ٱلحَطَبَ وَيُشْعِلوا نارًا .

الجزيرةُ تتحرَّكُ

حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئانِ في وَقْتٍ واحِدٍ ، أَوَّلُهُما : تَحَرُّكُ ٱلجَزيرةِ مِنْ

تَحْتِنا ، وَثانيهِما : صُراخُ ٱلرُّبّانِ يَدْعونا لِلنَّجاةِ بِأَنْفُسِنا وَٱلعَوْدةِ إلى ٱلسَّفينةِ . صاحَ : « إِنَّ ٱلأَرْضَ ٱلَّتي تَقِفونَ عَلَيْها لَيْسَتْ جَزيرةً ، وَإِنَّما هِيَ حوتٌ عَظيمٌ يَنامُ فَوْقَ سَطْحِ ٱلماءِ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَنَمَتْ عَلَيْهِ ٱلنَّباتاتُ ، لٰكِنَّ نارَكُمْ أَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ . ٱلهَرَبَ ! ٱلهَرَبَ ! قَبْلَ أَنْ يَغوصَ بِكُمُ ٱلحوتُ في أَعْماقِ ٱلبَحْرِ . »



فَلَمّا سَمِعْنا ما قالَهُ ٱلرُّبّانُ ، أَسْرَعْنا طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ عَلى مَسافةٍ بَعيدةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ ٱللَّحاقَ بِٱلسَّفينةِ قَبْلَ إِقْلاعِها . وَما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ ، حَتّى أَخَذَتِ ٱلجَزيرةُ تَغوصُ في ٱلأَعْماقِ . ثُمَّ هَبَّتْ رِياحٌ عاتِيةٌ عَصَفَتْ

بالسَّفينةِ بَعيدًا ، وَوَجَدْتُ نَفْسي في صِراعٍ مَعَ ٱلأَمْواجِ ، أُصْعَدُ إلى سَطحِ ٱلماءِ ، وَأغوصُ ثانيةً . وَٱخْتَفَتِ ٱلسَّفينةُ عَنْ ناظِرَيَّ ، وَٱنْقَطَعَ بِذٰلِكَ آخِرُ خَيْطٍ مِنَ ٱلأَمَلِ ؛ بَلْ تَوَقَّعْتُ ٱلمَوْتَ في ذٰلِكَ ٱلبَحْرِ ٱلمُتَلاطِمِ ٱلأَمْواجِ .

قِدْرُ ٱلماءِ

لٰكِنَّ ٱلعِنايَةَ ٱلرَّبَّانِيَّةَ ٱلَّتى لا تَغْفَلُ وَلا تَنامُ ، ساقَتْ إلَيَّ قِدْرًا فارِغَةً ، فَاحْتَضَنْتُها بِذِراعَيَّ ، وَنَجَوْتُ مِنَ ٱلغَرَقِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱليَسيرِ عَلَيَّ أَنْ أَبْقى مُحْتَضِنًا ٱلقِدْرَ ، عَلى حِينِ تَلْعَبُ بِيَ ٱلأَمْواجُ كَيْفَ شاءَتْ ، تَقْذِفُ بي هُنا ، ثُمَّ تَعودُ فَتَقْذِفُ بي هُناكَ ، وَأَنا لا حَوْلَ لي وَلا قُوَّةَ. وَبَقيتُ عَلى هٰذِهِ ٱلحالِ ٱللَّيْلَ بِطُولِهِ وَنَهارَ ٱليَوْمِ ٱلتّالي وَلَيْلَتَهُ . وَما إنْ طَلَعَ ٱلصَّباحُ ، حَتَّى تَطَلَّعْتُ حَوْلي وَقُلْتُ : « ٱلوَداعَ يادُنْيا ! إنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ في حَياتي . فَأَنا مَريضٌ تَصَلَّبَتْ أَصابِعي مِنْ شِدَّةِ ٱلبَرْدِ ، وَتَكادُ ذِراعَيَّ أَنْ تَتَصَلَّبا أَيْضًا ، وَلَنْ يَطولَ تَشَبُّثي بِٱلقِدْرِ ، وَبَعْدَها سَأَهْبِطُ إلى قاعِ ٱلبَحْرِ إلى ٱلأَبَدِ . »

اليابسة

وَسْطَ هٰذا ٱليَأْسِ لاحَ ٱلفَرَجُ ؛ إذْ رَأَيْتُ ٱليابِسَةَ . وَهَبَّتِ ٱلرِّيحُ وَدَفَعَتْني وَقِدْرَ ٱلماءِ إلى ٱلشّاطِئِ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبيرَةٍ . أَمّا ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَلا أَدْري . وَكُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنّي أَصْبَحْتُ عاجِزًا عَنِ ٱلحَرَكَةِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ . كُنْتُ خائِرَ ٱلقُوى مِنَ ٱلجوعِ وَٱلعَطَشِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ ٱلنُّهوضَ عَلى قَدَمَيَّ . نَظَرْتُ إلى قَدَمَيَّ فَلاحَظْتُ آثارَ نَهْشِ ٱلسَّمَكِ في لَحْمي ظاهِرَةً لِلْعِيانِ ، فَقُلْتُ

لِنَفْسي : « لا تَبْتَئِسْ يا سِنْدِبادُ ! سَتُشْفى قَدَماكَ . إنَّ غَسْلَهُما بِالماءِ ٱلنَّظيفِ ٱلعَذْبِ ضَروريٌّ ، لِذا يَجِبُ ٱلبَحْثُ عَنْهُ . »

أَخَذْتُ أَزْحَفُ عَلى ٱلأَرْضِ مُسْتَعينًا بِذِراعَيَّ حَتّى بَلَغْتُ شَجَرَةَ فاكِهَةٍ عَلى ضِفَّةِ نُهَيْرٍ . وَبَقيتُ تَحْتَها أَيّامًا أَقْتاتُ ثِمارَها وَأَشْرَبُ مِنْ مِياهِ ٱلنُّهَيْرِ ، إلى أَنْ تَحَسَّنَتْ حالُ قَدَمَيَّ ، وَاسْتَعَدْتُ شَيْئًا مِنْ قُوايَ . وَأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ قَدْ آنَ ٱلأَوانُ لِمُغادَرَةِ ٱلمَكانِ ، فَتَزَوَّدْتُ بِبَعْضِ ٱلفاكِهَةِ دونَ ٱلماءِ لِعَدَمِ قُدْرَتي عَلى حَمْلِهِ ، عَلى أَمَلِ ٱلعُثورِ عَلى أَنْهارٍ أُخْرى في طَريقي . وَلٰكِنْ خابَتْ ظُنوني وَانْهارَتْ آمالي ، إذْ لَمْ أُصادِفْ في طَريقي ماءً لِلشُّرْبِ أَوْ أَشْجارَ فاكِهَةٍ .

سِرْتُ عَلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ دونَ أَنْ تَلْمَحَ عَيْنايَ ما يَدُلُّ عَلى وُجودِ بَشَرٍ إطْلاقًا . وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ ثَلاثَةَ أَيّامٍ أَمْشي عَلى غَيْرِ هُدًى ، وَأَعيشُ عَلى بَقِيَّةٍ مِنَ ٱلأَمَلِ ، بَدَأَ ٱلخَوْفُ يَدِبُّ في أَوْصالي ، وَيَمْلِكُ عَلَيَّ مَشاعِري ، فَرُحْتُ أُخاطِبُ نَفْسي : « ياتُرى ، هَلْ أَنا ٱلوَحيدُ في هٰذِهِ ٱلجَزيرَةِ ؟ أَما مِنْ حَيَوانٍ أَوْ طَيْرٍ أَوْ إنْسانٍ هُنا ؟ ما ٱلَّذي أَراهُ هُناكَ ؟ »

الحصـان

أَخَذْتُ أُنْعِمُ ٱلنَّظَرَ فيما لاحَ لي مِنْ بَعيدٍ ، وَإذا بِهِ حِصانٌ . رُدَّتْ روحي إلَيَّ ، وَعاوَدَني ٱلأَمَلُ في ٱلحَياةِ ، فَأَسْرَعْتُ ٱلخُطى صَوْبَ ٱلحِصانِ . وَكانَ ، وَٱلحَقُّ يُقالُ ، في غايَةِ ٱلجَمالِ وَٱلرَّشاقَةِ . فَقُلْتُ في نَفْسي : « إنَّ حِصانًا كَهٰذا لا بُدَّ أَنْ يَكونَ لِمَلِكٍ أَوْ لِرَجُلٍ ثَرِيٍّ . »

وَما إِنِ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ كَهْفٍ لَيْسَ بِبَعيدٍ رَجُلٌ أَخَذَ يَجْري بِسُرْعَةٍ ، مُشْهِرًا سَيْفَهُ ، ثُمَّ صَرَخَ فِيَّ قائِلًا : « كُلُّ مَنْ يَمَسُّ حِصانَ ٱلمَلِكِ ٱلمَوْتُ مَصيرُهُ . »

قُلْتُ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « لا تَقْتُلْني أَيُّها ٱلرَّجُلُ ! ما كُنْتُ أَقْصِدُ إِلَّا رُؤْيَةَ هٰذا ٱلحِصانِ ٱلجَميلِ ، فَهَلْ هُوَ لَكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيَّ ٱلرَّجُلُ مُتَسائِلًا : « قُلْ لِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَما ٱلَّذي جاءَ بِكَ إِلى هٰذا ٱلمَكانِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ ٱلغَرَقِ بِوَساطَةِ قِدْرِ ماءٍ . » وَرَوَيْتُ لَهُ حِكايَتي مِنْ أَوَّلِها إِلى آخِرِها .

وَما إِنْ سَمِعَ حِكايَتِي ٱلمُؤْلِمَةَ ، حَتَّى أَخَذَني مِنْ يَدي ، وَسارَ بي إِلى ٱلكَهْفِ ، وَقَدَّمَ لِيَ ٱلطَّعامَ وَٱلماءَ . وَأَخَذَ يُسَرّي عَنّي هُمومي قائِلًا : « حَقًّا إِنَّ ٱلعِنايَةَ ٱلإِلٰهِيَّةَ شَمِلَتْكَ ، فَكَتَبَتْ لَكَ ٱلحَياةَ . إِنّي وَزُمَلائي مِنْ خُدّامِ ٱلمَلِكِ نَأْتي في كُلِّ عامٍ مَرَّةً إِلى هٰذا ٱلمَكانِ مِنَ ٱلجَزيرَةِ ، وَنَقْضي فيهِ أُسْبوعًا وَمَعَنا أَحْسَنُ جِيادِ ٱلمَلِكِ . فَهَواءُ ٱلجَزيرَةِ عَليلٌ يُنْعِشُ ٱلجِيادَ وَيُكْسِبُها ٱلصِّحَّةَ وَٱلعافِيَةَ . وَلٰكِنَّ ٱلجَزيرَةَ تَفْتَقِرُ إِلى ٱلطَّعامِ وَٱلماءِ لِبُعْدِها عَنِ ٱلأَماكِنِ ٱلمَأْهولَةِ بِالسُّكّانِ ، وَلِتَعَذُّرِ ٱلوُصولِ إِلَيْها دُونَ دَليلٍ . وَلِهٰذا سَنَصْطَحِبُكَ مَعَنا غَدًا في طَريقِ عَوْدَتِنا . »

المَلِكُ ٱلمِهْرَجانُ

لَمْ يَمُرَّ مِنَ ٱلوَقْتِ إِلَّا قَليلُهُ ، حَتَّى حَضَرَ زُمَلاؤُهُ فَوْقَ جِيادِ ٱلمَلِكِ ٱلرَّشيقَةِ ، وَرافَقْتُهُمْ في عَوْدَتِهِمْ . وَفي ٱلطَّريقِ حَدَّثوني كَثيرًا عَنْ مَلِكِهِمْ ، وَمِمّا قالوهُ : « إِنَّ ٱلمَلِكَ ٱلمِهْرَجانَ أَعْظَمُ مَلِكٍ في ٱلبِلادِ ، وَٱلشَّعْبُ يُوليهِ صادِقَ وَلائِهِ وَعَظيمَ حُبِّهِ ، لِما يَعْرِفُ عَنْهُ مِنْ كَرَمِ ٱلخُلُقِ ، وَطيبِ ٱلسَّريرَةِ ، وَإِعْطاءِ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ وَلِأَنَّهُ لا يَخافُ في ٱلحَقِّ لَوْمَةَ لائِمٍ . وَيَقْصِدُ مَدينَتَنا ٱلعَظيمَةَ تُجّارٌ مِنْ مُخْتَلِفِ بِقاعِ ٱلأَرْضِ ، فَيَلْقَوْنَ كُلَّ رِعايَةٍ وَحُسْنَ مُعامَلَةٍ . »

وَبِمُجَرَّدِ وُصولِنا إِلى ٱلمَدينَةِ ، أَسْرَعوا إِلى ٱلمَلِكِ ، وَأَنْبَأُوهُ بِشَأْني . فَما كانَ مِنْهُ إِلَّا أَنِ ٱسْتَدْعاني ، وَٱسْتَمَعَ إِلى تَفاصيلِ قِصَّتي بِكُلِّ ٱهْتِمامٍ . ثُمَّ عَقَّبَ عَلى كَلامي بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ كانَ ٱلحَظُّ حَليفَكَ . »

وَأَمَرَ خَدَمَهُ بِتَوْفيرِ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ شَمِلَني بِرِعايَتِهِ . وَكانَ بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلآخَرِ يَسْتَدْعيني إِلى ديوانِهِ ، وَكُنْتُ أُجيدُ ٱلحَديثَ بِعَدَدٍ مِنَ ٱللُّغاتِ ، فَٱسْتَعانَ بِيَ ٱلمَلِكُ في ٱلاهْتِمامِ بِشُؤونِ ٱلتُّجّارِ وَٱلبَحّارَةِ ٱلَّذينَ كانوا يَزورونَ مَمْلَكَتَهُ ، ثُمَّ إِخْطارِهِ بِما يَحْمِلونَ مِنْ بَضائِعَ أَوْ بِما يَشْتَرونَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ . وَقَدْ دَأَبْتُ عَلى سُؤالِ رَبابِنَةِ ٱلسُّفُنِ عَنْ رِحْلاتِهِمْ ، وَعَمّا إِذا كانوا يَعْرِفونَ بَغْدادَ .

رُبّانُ السَّفينةِ

ذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتْ في المِيناءِ سَفِينَةٌ كَبيرةٌ ، وَبَدَأَ التُّجّارُ القادِمونَ عَلَيْها في إِنْزالِ بَضائِعِهِمْ ، وَأَخَذُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرونَ وَيُقايِضونَ . فاقْتَرَبْتُ مِنَ الرُّبّانِ وَسَأَلْتُهُ : « أَما مِنْ بَضائِعَ أُخْرى في السَّفينةِ ؟ »

كانَ جَوابُهُ : « في السَّفينةِ بِضْعَةُ صَناديقَ لِتاجِرٍ شابٍّ بَدَأَ رِحْلَتَهُ مَعَنا ، وَلٰكِنَّهُ ماتَ غَرَقًا . وَسَأَقومُ بِبَيْعِ بِضاعَتِهِ وَتَسْليمِ ثَمَنِها إلى أَهْلِهِ في بَغْدادَ العَظيمةِ . »

تَفَرَّسْتُ في وَجْهِهِ ، فَعَرَفْتُهُ . وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تَذْكُرَ لِيَ اسْمَهُ ؟ »

أَجابَني : « إِنَّ اسْمَهُ السِّنْدِبادُ . »

وَما إِنْ سَمِعْتُ اسْمِيَ حَتّى كادَ أَنْ يُغْشى عَلَيَّ ، فَصَرَخْتُ بِأَعْلى صَوْتي : « أَيُّها الرُّبّانُ ! أَنا السِّنْدِبادُ ، وَهٰذِهِ بِضاعَتي ، وَإِنّي لَأَشْكُرُكَ عَلى احْتِفاظِكَ بِها ! »

وَلَمْ يَسَعِ الرُّبّانُ إِلّا أَنْ يَسْتَنْكِرَ قَوْلِيَ وَيَصيحَ : « كَيْفَ لي أَنْ أُصَدِّقَكَ ؟ صَحيحٌ أَنَّ وَجْهَكَ يَنِمُّ عَنِ الطِّيبَةِ وَالصَّلاحِ ، وَلٰكِنَّكَ تَدَّعي أَنَّكَ السِّنْدِبادُ لِتَسْتَوْلِيَ عَلى البَضائِعِ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ . لَقَدْ رَأَيْتُ السِّنْدِبادَ بِعَيْنَيَّ وَالماءُ يَبْتَلِعُهُ ، كَما رَآهُ البَحّارَةُ وَالتُّجّارُ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ ، عِنْدَما كانَ المَوْتُ يَطْويهِ بَيْنَ أَمْواجِ البَحْرِ . كَفاكَ ادِّعاءً ، فَأَنْتَ لَسْتَ السِّنْدِبادَ . »

وَلَمّا زادَتْ حِدَّةُ المَوْقِفِ بَيْنَنا ، قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها الرُّبّانُ ! أَرْجو أَنْ

تَسْتَمِعَ إِلَيَّ ، وَتُنْصِتَ إلى حِكايَتي ، وَأَتْرُكُ لَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْرَ تَصْديقي أَوْ تَكْذيبي . »

وَأَخَذْتُ أَحْكي لَهُ حِكايَتي مُنْذُ أَنْ قابَلْتُهُ في البَصْرَةِ ، وَذَكَّرْتُهُ بِأَشْياءَ خاصَّةٍ جَرَتْ بَيْنَنا تَقومُ دَليلًا عَلى صِدْقِ قَوْلي . حِينَذاكَ اقْتَنَعَ الرُّبّانُ بِما قُلْتُهُ ، وَأَظْهَرَ التُّجّارُ فَرْحَتَهُمْ بِنَجاتي وَهَنَّأُوني بِالسَّلامةِ .

هَدِيَّةُ المَلِكِ

قامَ الرُّبّانُ بِتَسْليمي بَضائِعي فَاخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِها أَغْلاها لِتَكونَ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ ، وَحَمَلَها البَحّارَةُ وَوَضَعُوها بَيْنَ يَدَيْهِ . وَما إِنْ رَآها حَتّى قالَ لي : « ما هٰذا الَّذي أَراهُ ؟ لَقَدْ جِئْتَنا خالِيَ الوِفاضِ ، وَلٰكِنّي أَراكَ الآنَ تُقَدِّمُ لي هَدِيَّةً ثَمينةً ، فَكَيْفَ حَدَثَ هٰذا ؟ »

أَعَدْتُ عَلى مَسامِعِ المَلِكِ قِصَّةَ السَّفينةِ وَما جَرى لي . وَلَمْ يَسَعِ المَلِكُ إِلّا أَنْ يُقَدِّمَ لي هَدِيَّةً أَثْمَنَ مِنْ هَدِيَّتي لَهُ .

العَوْدَةُ إلى بَغْدادَ

عِنْدَما شَرَعَتِ السَّفينةُ تَأْخُذُ أُهْبَتَها لِلإِبْحارِ ، ذَهَبْتُ إلى المَلِكِ وَقُلْتُ لَهُ : « يُحْزِنُني يامَوْلايَ أَنْ أُغادِرَ بَلَدَكَ الجَميلَ ، وَأُحْرَمَ مِنْ رُؤْيَةِ مَلِكٍ عَظيمٍ ، عَطَفَ عَلَيَّ ، وَشَمِلَني بِرِعايَتِهِ ؛ فَأَنا يامَوْلايَ أَحِنُّ إلى مَدينَتي وَمَسْقَطِ رَأْسي ، بَغْدادَ العَظيمةِ . »

وَوافَقَ المَلِكُ عَلى رَحيلي قائِلًا : « لَقَدْ صَدَقْتَ فيما قُلْتَ ، وَالواجِبُ

يَدْعُوكَ إلى ٱلعَوْدةِ إلى بَلَدِكَ . لَقَدْ كُنْتَ بَيْنَنا نِعْمَ ٱلصَّديقُ ٱلَّذي نَعْتَزُّ بِصَداقَتِهِ ، فَقَدْ قَدَّمْتَ إلى بَلَدي أَجَلَّ ٱلخِدْماتِ وَأَصْدَقَها . رافَقَتْكَ ٱلسَّلامَةُ ، وَلَكَ شُكْري وَتَقْديري . »

ثُمَّ أَمَرَ خَدَمَهُ أَنْ يَحْمِلوا لِيَ ٱلهَدايا ٱلثَّمينَةَ مِنْ ذَهَبٍ وَجَواهِرَ وَملابِس فاخِرةٍ وَغَيْرِها مِمَّا لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ . وَبَعْدَ رِحْلَةٍ طَويلَةٍ رَسَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ في ميناءِ ٱلبَصْرَةِ ، وَمِنْها سافَرْتُ بَرًّا إلى بَغْدادَ . وَقَدْ فَرِحَ أَصْدِقائي بِعَوْدَتي ، وَاشْتَرَيْتُ لِنَفْسي بَيْتًا فَخْمًا ، عِشْتُ فيهِ عِدَّةَ سَنَواتٍ في جَوٍّ مِنَ ٱلسَّعادَةِ وَٱلرَّفاهِيَةِ . وَغَدًا إنْ شاءَ ٱللهُ سَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلثّانِيَةِ .

الرِّحْلَـةُ ٱلثّانِيَـةُ

عِنْدَما عُدْتُ مِنْ رِحْلَتي ٱلأُولى ، قَرَّرْتُ أَنْ أَقْضِيَ بَقِيَّةَ عُمْري في بَغْدادَ . فَقَدْ رَزَقَني ٱللهُ ٱلخَيْرَ ٱلوَفيرَ ، وَكُلَّ أَسْبابِ ٱلسَّعادَةِ : فَٱلبَيْتُ فَخْمٌ ، وَٱلأَصْدِقاءُ كَثيرونَ ، وَمُتَطَلَّباتُ حَياةِ ٱلرَّفاهِيَةِ مُتَوَفِّرَةٌ . وَلٰكِنْ وَسْوَسَتْ لي نَفْسي أَنْ أُغامِرَ ثانِيَةً لِأَرى ما لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ بِلادٍ وَجُزُرٍ وَغَيْرِها . وَعاوَدَني ٱلحَنينُ إلى ٱلتِّجارَةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِراءٍ وَمُقايَضَةٍ .

وَلَمّا عَزَمْتُ عَلى ٱلخُروجِ في تِجارَةٍ ، مَلَأْتُ ٱلصَّناديقَ بِما خَفَّ حَمْلُهُ وَغَلا ثَمَنُهُ ، مِمّا تَزْخَرُ بِهِ أَسْواقُ بَغْدادَ . وَحَمَلْتُها إلى ٱلبَصْرَةِ ؛ حَيْثُ رَكِبْتُ سَفينَةً تَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ ٱلتُّجّارِ .

أَقْلَعَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ في رِحْلَةٍ جَميلَةٍ ، وَكُنّا نَتَنَقَّلُ بِها مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ إلى جَزيرَةٍ ، بِحَيْثُ كانَتْ وُجْهَةُ سَيْرِنا ٱلجَنوبَ وَٱلشَّرْقَ . وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ ، رَسَتِ ٱلسَّفينَةُ عَلى شاطِئِ جَزيرَةٍ غَنِيَّةٍ بِأَشْجارِها ٱلدّائِمَةِ ٱلخُضْرَةِ ، وَبِأَثْمارِها ٱليانِعَةِ ، وَبِأَزْهارِها ٱلفَوّاحَةِ ، وَبِأَنْهارِها ذاتِ ٱلمِياهِ ٱلعَذْبَةِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نَرَ بِها بَشَرًا .

نَزَلَ بَعْضُ ٱلبَحّارَةِ لِيَمْلَأُوا ٱلأَواني بِٱلمِياهِ ٱلعَذْبَةِ ، عَلى حِينِ رافَقْتُ بَعْضَ ٱلتُّجّارِ في ٱلتَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ ٱلجَزيرَةِ ، وَشاهَدْنا ٱلأَزْهارَ ٱلرّائِعَةَ ٱلجَمالِ . وَقَدْ

وَقَعَتْ عَيْنايَ عَلى زَهْرَةٍ كَبيرَةٍ وَجَميلَةٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْها وَشَمَمْتُها ، فَرُحْتُ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَلَمَّا أَفَقْتُ مِنْ نَوْمي ، وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا ، وَلا أَثَرَ لِلْبَحَّارَةِ أَوِ التُّجَّارِ عَلى الْجَزيرَةِ . وَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ أَصْرُخُ : « يالَلْحَماقَةِ الَّتي ارْتَكَبْتُها ! لِمَ ابْتَعَدْتُ عَنْ بَلَدي الْحَبيبِ ؟ هٰأَنَذا أَصْبَحْت وَحيدًا ، وَفي مَكانٍ مُقْفِرٍ غَيْرِ عامِرٍ بِالسُّكَّانِ . وَمِنَ الْغَباءِ أَنْ أَصْرُخَ في مِثْلِ هٰذا الْمَكانِ . »

الـرُّخّ

وَبِكُلِّ مَشَقَّةٍ تَسَلَّقْتُ إِلى أَعْلى شَجَرَةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ حَوْلي . فَرَأَيْتُ سَفينَتَنا مُبْحِرَةً بَعيدًا ، وَلَمْ أَرَ في الْجَزيرَةِ إِلَّا الْأَشْجارَ ، وَلا شَيْءَ غَيْرَ الْأَشْجارِ . وَلَمَّا أَطَلْتُ النَّظَرَ ، رَأَيْتُ عَنْ بُعْدٍ شَيْئًا كَبيرًا ، لَوْنُهُ أَبْيَضُ ، وَيُشْبِهُ قُبَّةً هائِلَةً فَوْقَ بَيْتٍ .

سِرْتُ نَحْوَ هٰذا الشَّيْءِ عِدَّةَ ساعاتٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْغُروبِ . وَوَجَدْتُهُ يُشْبِهُ بَيْضَةً ضَخْمَةً جِدًّا . وَفي بِدايَةِ الْأَمْرِ ، ظَنَنْتُها قُبَّةً ، وَلٰكِنْ ، ساءَلْتُ نَفْسي : « إِنْ كانَتْ قُبَّةً ، فَأَيْنَ الْبَيْتُ الَّذي أُقيمَتْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ الْبابُ ؟ »

بَيْنَما كُنْتُ أُرَدِّدُ هٰذِهِ الْأَسْئِلَةَ في نَفْسي ، إِذا بِشَيْءٍ يَحْجُبُ الشَّمْسَ ، وَيُحَوِّلُ النَّهارَ لَيْلًا . وَرَفَعْتُ رَأْسي فَرَأَيْتُ طائِرًا ضَخْمًا جِدًّا . فَتَذَكَّرْتُ ما كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ الْبَحَّارَةِ عَنْ طائِرٍ هائِلِ الْحَجْمِ يُقالُ لَهُ الرُّخُّ . وَلَنا أَنْ نَتَخَيَّلَ



ضَخامَتَهُ ، إِذا عَلِمْنا أَنَّهُ يَزُقُّ صَغيرَهُ بِفيلٍ مَرَّةً واحِدَةً . وَهُنا تَأَكَّدَ لي أَنَّ الطَّائِرَ الَّذي أَراهُ هُوَ الرُّخُّ ، وَقَدْ جاءَ لِيَرْقُدَ عَلى الْبَيْضَةِ . وَفِعْلًا حَضَنَ الْبَيْضَةَ بِجَناحَيْهِ وَرَقَدَ عَلَيْها . وَهُنا جالَتْ في ذِهْني عِدَّةُ أَسْئِلَةٍ مِنْ بَيْنِها : « مِنْ أَيْنَ جاءَ الرُّخُّ ، وَإِلى أَيْنَ سَيَطيرُ ؟ فَقَدْ يَطيرُ إِلى مَكانٍ مَأْهولٍ بِالسُّكَّانِ ؛ فَمَكانٌ مَأْهولٌ أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ مَكانٍ مُقْفِرٍ .

أَسْرَعْتُ بِانْتِزاعِ عِمامَتي مِنْ فَوْقِ رَأْسي ، وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَساقِ الرُّخِّ الشَّبيهِ بِجِذْعِ الشَّجَرَةِ ، وَأَحْكَمْتُ الرِّباطَ . وَعِنْدَما طَلَعَ الصَّباحُ ، طارَ بي في الْجَوِّ دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِوُجودي . وَطارَ مَسافَةً بَعيدَةً فَوْقَ بِحارٍ

وَجُزُرٍ وَجِبالٍ وَوُدْيانٍ . وَأَخيرًا هَبَطَ في وادٍ سَحيقٍ ، تَحُفُّهُ ٱلهِضابُ وَكَأَنَّها أَسْوارٌ شاهِقَةٌ .

وادي ٱلمـاسِ

ٱنْقَضَّ ٱلرُّخُّ في ٱلوادي عَلى أَفْعًى ضَخْمَةٍ ، فَخِفْتُ عَلى نَفْسي ، وَحَلَلْتُ عِمامَتي مِنْ ساقِهِ وَوَلَّيْتُ هارِبًا ، إِلى أَنْ وَجَدْتُ صَخْرَةً كَبيرَةً ٱخْتَبَأْتُ وَراءَها . أَمّا ٱلرُّخُّ فَقَدْ رَفَعَ ٱلأَفْعى بَيْنَ مَخالِبِهِ ، وَطارَ في ٱلجَوِّ .

نَظَرْتُ حَوْلي فَرَأَيْتُ ٱلأَفاعِيَ ٱلمُخيفَةَ تَسْعى في ٱلوادي ، حَتّى إِنَّ بَعْضَها كانَ يُضارِعُ ٱلسَّفينَةَ في طُولِها . وَلٰكِنَّها في وَضَحِ ٱلنَّهارِ تَلْجَأُ إِلى جُحُورِها ، لِأَنَّها تَنامُ نَهارًا ، وَتَسْعى في طَلَبِ طَعامِها لَيْلًا . وَلِهٰذا لا خَوْفَ عَلَيَّ مِنْها في ٱلنَّهارِ ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ مَخْرَجٍ لي مِنَ ٱلوادي . وَمَشَيْتُ مَسافَةً طَويلَةً ، وَإِذا بي أَرى أَنَّ قاعَ ٱلوادي مُغَطًّى بِٱلماسِ ٱلنَّفيسِ ، وَبِأَحْجامٍ كَبيرَةٍ وَجَميلَةٍ ، وَلٰكِنَّني ما كُنْتُ راغِبًا في ٱلماسِ ، بَلْ في ٱلخُروجِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلوادي .

وَعِنْدَما حَلَّ ٱللَّيْلُ ، بَدَأَتِ ٱلأَفاعي تَخْرُجُ مِنْ جُحورِها ، وَلِحُسْنِ حَظّي وَجَدْتُ نَفْسي عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْ كَهْفٍ صَغيرٍ عَلى مَدْخَلِهِ صَخْرَةٌ كَبيرَةٌ ، فَجَرَيْتُ إِلَيْهِ وَأَزَحْتُ ٱلصَّخْرَةَ ٱلكَبيرَةَ عَنْ مَدْخَلِهِ . وَكانَتْ هٰذِهِ ٱلصَّخْرَةُ نِعْمَةً لي ، إِذْ حَمَتْني طيلَةَ ٱللَّيْلِ مِنَ ٱلأَفاعي ٱلَّتي كُنْتُ أَسْمَعُ فَحيحَها حَوْلَ ٱلكَهْفِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعِ ٱلوُصولَ إِلَيَّ .

تُجّـارُ ٱلمـاسِ

في ٱلصَّباحِ ، خَرَجْتُ مِنَ ٱلكَهْفِ ، وَفِكْري مُنْصَرِفٌ إِلى كَيْفِيَّةِ ٱلخُروجِ مِنَ ٱلوادي . وَإِذا بي أَسْمَعُ صَوْتَ ٱرْتِطامِ شَيْءٍ بِالأَرْضِ قَريبًا مِنّي . وَٱلْتَفَتُّ إِلى جِهَةِ ٱلصَّوْتِ ، فَشاهَدْتُ كُتْلَةً مِنَ ٱللَّحْمِ سَقَطَتْ عَلى قِطَعِ ٱلماسِ ، وَٱلدَّمُ لا يَزالُ يَسيلُ مِنْها . فَعَجِبْتُ لِما أَرى ، وَعِنْدَها عادَتْ بِيَ ٱلذّاكِرَةُ إِلى ما سَمِعْتُهُ عَنْ وادي ٱلماسِ ، وَكَيْفَ يَتَحايَلُ ٱلتُّجّارُ عَلى جَمْعِهِ بِإِلْقاءِ كُتَلِ ٱللَّحْمِ فَوْقَ ٱلماسِ في ٱلوادي . وَمِنْ شَأْنِ حَرارَةِ ٱلشَّمْسِ أَنْ تَجْعَلَ كُتَلَ ٱللَّحْمِ لَزِجَةً فَتَلْتَصِقَ بِها قِطَعُ ٱلماسِ . وَتَجيءُ ٱلطُّيورُ ٱلضَّخْمَةُ فَتَحْمِلُها بَيْنَ مَخالِبِها ، وَتَطيرُ بِها لِتُطْعِمَ صِغارَها في ٱلهِضابِ ٱلقَريبَةِ . وَما إِنْ تَهْبِطَ ٱلطُّيورُ ، حَتّى يُفاجِئَها ٱلتُّجّارُ بِٱلصَّيْحاتِ ٱلقَوِيَّةِ ، فَتَنْفِرُ وَتَلوذُ بِالطَّيَرانِ ، وَيَذْهَبُ كُلُّ تاجِرٍ إِلى كُتْلَةِ ٱللَّحْمِ ٱلَّتي أَلْقاها ، وَيَجْمَعُ ما لَصِقَ بِها مِنَ ٱلماسِ .

قُلْتُ في نَفْسي : « لَقَدْ جاءَ بي إِلى هٰذا ٱلمَكانِ طائِرٌ ، وَمِنَ ٱلضَّروريِّ أَنْ يَأْخُذَني مِنْ هٰذا ٱلمَكانِ طائِرٌ آخَرُ . » وَبِناءً عَلى هٰذا ٱلِافْتِراضِ ، مَلَأْتُ كيسَ ٱلطَّعامِ ٱلَّذي كانَ مَعي بِأَكْبَرِ قِطَعِ ٱلماسِ وَأَنْفَسِها ، ثُمَّ فَكَكْتُ عِمامَتي وَلَفَفْتُها حَوْلَ جِسْمي وَأَكْبَرِ كُتْلَةٍ مِنَ ٱللَّحْمِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّها ، وَٱسْتَلْقَيْتُ عَلى ٱلأَرْضِ بِحَيْثُ تَكونُ كُتْلَةُ ٱللَّحْمِ فَوْقي .

الإِنْقاذُ

بَعْدَ فَتْرَةٍ هَبَطَ طائِرٌ ضَخْمٌ جِدًّا وَرَفَعَني وَكُتْلَةَ ٱللَّحْمِ ، وَطارَ بي مِنَ

الوادي . وَكانَ صِغارُ الطَّائِرِ بِانْتِظارِ أَبيهِمْ عِنْدَ قِمَّةِ الهَضْبَةِ . وَما إِنْ رَآهُ التُّجّارُ ، حَتّى تعالَتْ صَيْحاتُهُمْ ، فَأَلْقى الطّائِرُ كُتْلَةَ اللَّحْمِ وَطارَ . وَقَدْ أُصيبوا بِالذُّعْرِ عِنْدَما رَأَوْني أَحُلُّ الرِّباطَ وَأَنْهَضُ عَلى قَدَمَيَّ وَالدَّمُ يُلَطِّخُ مَلابِسي ، وَدَلائِلُ المَرَضِ عَلى جِسْمي بَعْدَ رِحْلَتَيْنِ جَوِّيَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما مَرْبوطًا في كُلِّ مَرَّةٍ إِلى ساقِ طائِرٍ . وَلٰكِنِّي هَدَّأْتُ مِنْ رَوْعِهِمْ . وَقُلْتُ لَهُمْ :

« أَنا رَجُلٌ مِثْلُكُمْ ، وَقَدْ حَمَلَني الطَّائِرُ الَّذي حَمَلَ كُتْلَةَ اللَّحْمِ مِنْ وادي الماسِ . وَلَمْ يَلْصَقْ بِكُتْلَةِ اللَّحْمِ هٰذِهِ شَيْءٌ مِنَ الماسِ ، وَلٰكِنِّي أَحْضَرْتُ مَعي قِطَعًا مِنْهُ ، كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها أَفْضَلُ بِكَثيرٍ مِنْ جَميعِ الماسِ الَّذي كانَ سَيَلْصَقُ بِكُتْلَةِ اللَّحْمِ . وَإِنِّي بِكُلِّ سُرورٍ سَأُعْطي بَعْضًا مِنْها لِصاحِبِ كُتْلَةِ اللَّحْمِ هٰذِهِ . »

اقْتَرَبَ التُّجّارُ مِنِّي ، وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ ، وَتَحَدَّثُوا مَعي بِما خَفَّفَ عَنِّي ما لاقَيْتُهُ ، فَقَدْ قالُوا لي : « إِنَّكَ إِنْسانٌ مَحْظوظٌ ، إِذْ لَمْ يُقَدَّرْ لِإِنْسانٍ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هٰذا الوادي . »

وَساعَدَني التُّجّارُ عَلى بَيْعِ بَعْضِ قِطَعِ الماسِ ، وَالبَحْثِ عَنْ سَفينَةٍ تَقْصِدُ بَغْدادَ .

العَـوْدَة

عُدْتُ إِلى بَغْدادَ رَجُلًا غَنِيًّا جِدًّا بِما أَحْمِلُهُ مَعي مِنْ أَكْبَرِ قِطَعِ الماسِ في العالَمِ وَمِنَ البَضائِعِ النَّفيسَةِ . وَعِنْدَما وَطِئَتْ قَدَمايَ أَرْضَ الوَطَنِ ، قُلْتُ

لِنَفْسي : « سَأَقْضي بَقِيَّةَ عُمْري في بَيْتِيَ الجَميلِ ، أُنْفِقُ مِنْ ثَرْوَتِي الطّائِلَةِ ، وَأَسْتَمْتِعُ بِصُحْبَةِ أَصْدِقائي . أَمّا رُكوبُ البَحْرِ فلا عَوْدَةَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ تَجَشَّمْتُ المَشاقَّ ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْأَخْطارِ في رِحْلَتَيَّ اللَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِما . »

وَلٰكِنَّني لَمْ أَفِ بِما وَعَدْتُ ، بَلْ رَكِبْتُ البَحْرَ مَرَّةً ثالِثَةً . وَغَدًا إِنْ شاءَ اللهُ ، سَأُحَدِّثُكُمْ ، أَيُّها الأَصْدِقاءُ ، عَنْ رِحْلَتي الثّالِثَةِ .

الرِّحْلَةُ الثَّالِثَةُ

لَمْ يَمْضِ زَمَنٌ طَويلٌ حَتَّى تاقَتْ نَفْسي لِزِيارَةِ بُلْدانٍ لَمْ أَزُرْها مِنْ قَبْلُ ، أَبيعُ فيها وَأَشْتَري . وَكانَ أَنْ أَقْلَعْتُ مِنَ ٱلبَصْرَةِ مَعَ آخَرينَ مِنَ ٱلتُّجّارِ عَلى سَفينَةٍ عَظيمَةٍ ، راحَتْ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ إِلى جَزيرَةٍ . وَكُنّا نَبيعُ وَنَشْتَري وَنَكْسِبُ ٱلكَثيرَ ؛ فَكَثُرَتْ أَمْوالُنا ، وَزادَتْ ثَرَواتُنا ، عِلاوَةً عَلى ٱلسُّرورِ ٱلَّذي نَعِمْنا بِهِ أَثْناءَ ٱلرِّحْلَةِ .

وَوَسْطَ هٰذا ٱلجَوِّ مِنَ ٱلسُّرورِ ٱلَّذي كُنّا نَعيشُهُ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفَةٌ هَوْجاءُ جَعَلَتْ مِنَ ٱلسَّفينَةِ أُلْعوبَةً تَتَلَهّى بِها ، تَقْذِفُها ذاتَ ٱليَمينِ وَذاتَ ٱلشِّمالِ . وَدامَتِ ٱلعاصِفَةُ أَرْبَعَةَ أَيّامٍ بِلَياليها ، كُنّا خِلالَها تَحْتَ رَحْمَتِها ، إِلى أَنْ وَجَدْنا أَنْفُسَنا عِنْدَ جَزيرَةٍ .

وَجاءَنا ٱلرُّبّانُ ، وَعَلاماتُ ٱلخَوْفِ وَٱلقَلَقِ مُرْتَسِمَةٌ عَلى وَجْهِهِ ، وَقالَ : « لَنْ نَسْتَطيعَ مُواصَلَةَ ٱلإِبْحارِ في مِثْلِ هٰذا ٱلجَوِّ ٱلعاصِفِ ، وَلا نَسْتَطيعُ ٱلنُّزولَ فَوْقَ هٰذِهِ ٱلجَزيرَةِ ، فَأَنا أَعْرِفُ ٱلكَثيرَ عَنْها؛ إِنَّهُ تَعيشُ فَوْقَها جَماعاتٌ مِنَ ٱلقُرودِ ، إِذا رَأَتْ سَفينَةً صَعِدَتْ إِلى ظَهْرِها بِٱلآلافِ . وَلَوْ حاوَلَ أَحَدٌ مَنْعَها مِنَ ٱلصُّعودِ ، هَجَمَتْ عَلَيْهِ جُموعُها وَفَتَكَتْ بِهِ . وَعَلَيْهِ أَرْجو أَلّا يُحاوِلَ أَحَدُكُمُ ٱلتَّعَرُّضَ لَها . »

القُـرُودُ

ما كادَ ٱلرُّبّانُ يُتِمُّ كَلامَهُ ، حَتّى أَخَذَتِ ٱلقُرودُ تَتَوافَدُ بِٱلآلافِ . وَصَعِدَتْ إِلى سَطْحِ ٱلسَّفينَةِ ، دونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَها أَحَدٌ ، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِٱلبَحّارَةِ وَٱلتُّجّارِ وَأَنْزَلَتْهُمْ إِلى ٱلجَزيرَةِ ، وَقامَتْ بِتَسْييرِ ٱلسَّفينَةِ إِلى جِهَةٍ أُخْرى بَعيدًا عَنِ ٱلجَزيرَةِ .

بَعْدَ ٱسْتيلاءِ ٱلقُرودِ عَلى ٱلسَّفينَةِ وَما فيها ، أَخَذْنا نُنْعِمُ ٱلنَّظَرَ فيما نَحْنُ فيهِ ؛ فَتَوارَدَتْ عَلى خَواطِرِنا ٱلأَفْكارُ وَٱلِافْتِراضاتُ : « مِنَ ٱلمُسَلَّمِ بِهِ أَنَّ في ٱلجَزيرَةِ قُرودًا أُخْرى لا حَصْرَ لَها . ماذا عَسانا أَنْ نَفْعَلَ ؟ ما هُوَ ٱلمَكانُ ٱلَّذي نَسْتَطيعُ ٱلذَّهابَ إِلَيْهِ ؟ »

وَشاهَدَ أَحَدُ ٱلبَحّارَةِ مِنْ أَعْلى شَجَرَةٍ كانَ يَقِفُ عَلَيْها بَيْتًا حَجَرِيًّا ضَخْمًا ، فَقالَ مُتَسائِلًا : « أَمِنَ ٱلحِكْمَةِ أَنْ نَقْصِدَ ذٰلِكَ ٱلبَيْتَ وَنَخْتَبِئَ فيهِ لِاتِّقاءِ شَرِّ هٰؤُلاءِ ٱلقُرودِ ؟ »

في ذٰلِكَ ٱلبَيْتِ ٱلحَجَرِيِّ ، دَخَلْنا قاعَةً فَسيحَةً ، وَكُلُّنا يَتَطَلَّعُ بِحِرْصٍ إِلى ما سَنُفاجَأُ بِهِ . وَإِذا بِنا نَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدامِ مارِدٍ . وَما إِنْ دَخَلَ ٱلقاعَةَ ، حَتّى أَغْلَقَ ٱلبابَ ٱلضَّخْمَ خَلْفَهُ ؛ فَسَدَّ أَمامَنا طَريقَ ٱلهَرَبِ .

طَعامُ ٱلمارِدِ

كانَ ٱلمارِدُ ضَخْمَ ٱلجُثَّةِ ، وَكَأَنَّهُ شَجَرَةٌ باسِقَةٌ بِعَيْنَيْنِ وَكَأَنَّهُما شُعْلَتانِ مِنْ

نارٍ مُتأجِّجةٍ ، وَأسْنانٍ كَأنَّها صُخورٌ حادَّةٌ بَيْضاءُ ، وَفَمٍ كَأنَّهُ كَهْفٌ . وَبَعْدَ أنِ اسْتَقَرَّ بِهِ ٱلمُقامُ ، أُخْرَجَ بَعْضَ ٱلحَطَبِ مِنْ صُنْدوقٍ في ٱلقاعةِ ، وَأشْعَلَ نيرانًا كَبيرةً ، ثُمَّ أخَذَ يَتَفرَّسُ في وُجوهِنا . وَكُنْتُ أوَّلَ مَنْ رَفَعَهُ بِيَدِهِ . وَأخَذَ يُقَلِّبُني ؛ فَوَجَدَني ضَعيفًا هَزيلًا فَتَرَكَني . وَلِحُسْنِ ٱلحَظِّ ، أنَّ مَلابِسي ٱلفاخِرةَ كانَتْ تَكْسو جِسْمًا لَيْسَ بِأسْمَنَ مِنْ أُصْبُعِهِ . ثُمَّ أخَذَ يَرْفَعُ ٱلرِّجالَ ، واحِدًا تِلْوَ ٱلآخَرِ ، حَتَّى وَجَدَ ٱلأسْمَنَ ؛ فَأكَلَهُ . وَبَعْدَ أنِ اسْتَراحَ قَليلًا ، غَرِقَ في نَوْمٍ عَميقٍ .

وَفي صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، غادَرَ ٱلمارِدُ ٱلبَيْتَ ، بَعْدَ أنْ أغْلَقَ ٱلبابَ ٱلضَّخْمَ



خَلْفَهُ ؛ فَتَعَذَّرَ عَلَيْنا ٱلخُروجُ . وَعِنْدَما حَلَّ ٱلمَساءُ ، عادَ ٱلمارِدُ ثانِيةً ، وَأخَذَ يَرْفَعُنا بِيَدِهِ ، وَاحِدًا تِلْوَ ٱلآخَرِ ، حَتَّى وَجَدَ ضالَّتَهُ في شَخْصِ رُبّانِ ٱلسَّفينةِ ؛ فَأكَلَهُ وَنامَ .

فِرارُنا مِنَ ٱلمارِدِ

بَعْدَ أنْ غادَرَ ٱلمارِدُ ٱلبَيْتَ في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي ، وَأوْصَدَ ٱلبابَ خَلْفَهُ ، خاطَبْتُ أصْحابي قائِلًا : « عَلَيْنا أنْ نَفْعَلَ شَيْئًا ، وَإلّا فَسَيَأْكُلُنا ٱلمارِدُ واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ . إنَّهُ ضَخْمٌ فَلا نَسْتَطيعُ ٱلفَتْكَ بِهِ في حالةِ يَقَظَتِهِ . » ثُمَّ أطْلَعْتُهُمْ عَلى ٱلخُطَّةِ ٱلَّتي دَبَّرْتُها .

في مَساءِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ ، حَضَرَ ٱلمارِدُ – كَعادَتِهِ – وَجَلَسَ في ٱلقاعةِ ، وَأخَذَ واحِدًا مِنّا وَٱلْتَهَمَهُ ، ثُمَّ نامَ .

وَبِمُنْتَهى ٱلسُّرْعةِ شَرَعْنا في تَنْفيذِ خُطَّتِنا : وَضَعَ اثْنانِ مِنّا قَضيبَيْنِ مِنَ ٱلحَديدِ في ٱلنّارِ حَتَّى أصْبَحا مِثْلَ جَمْرَتَيْنِ ، وَفي نَفْسِ ٱلوَقْتِ قامَ اثْنانِ آخَرانِ بِخَرْقِ مَنْفَذٍ في ٱلبابِ ، عَلى حينَ انْصَرَفَ اثْنانِ إلى بِناءِ عِدَّةِ أطْوافٍ مِنْ قِطَعِ ٱلخَشَبِ ٱلَّتي كانَ ٱلمارِدُ قَدْ وَضَعَها في ٱلصُّنْدوقِ .

وَما إنْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ حَسْبَ ٱلخُطَّةِ ٱلمَرْسومةِ ، حَتَّى صِحْتُ فيهِمْ قائِلًا : « ٱلآنَ ! » وَهِيَ كَلِمةُ ٱلسِّرِّ بَيْنَنا . فَغَرَزْنا ٱلقَضيبَيْنِ ٱلمُلْتَهِبَيْنِ في عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ وَلَّيْنا ٱلأدْبارَ ، حامِلينَ ٱلأطْوافَ ٱلَّتي أعْدَدْناها ، وَجَرَيْنا نَحْوَ ٱلشّاطِئِ .

وَكانَتْ صَرَخاتُ ٱلمارِدِ تَطِنُّ في آذانِنا . وَأنْزَلْنا ٱلأطْوافَ إلى ٱلماءِ . وَما

كِدْنا نَتحرَّكُ ، حتَّى رَأَيْنا آلمارِدَ ، يَقودُهُ اثْنانِ مِنْ أَصْدِقائِهِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ ، يَسيرونَ إلى آلشّاطِئِ . وَما إنْ أَبْصَرانا حَتَّى قَذَفانا بِالصُّخورِ آلكَبيرةِ ، وَكانَتِ آلواحِدةُ مِنْها في حَجْمِ آلبَيْتِ . وَقَدْ سَقَطَ بَعْضُها في آلبَحْرِ ، وَأَصابَ بَعْضُها آلآخَرُ أَطْوافَنا ، وَقَتَلَ بَعْضَ رِجالِنا . وَلَمْ يَنْجُ إلَّا آلطَّوْفُ آلَّذي كُنْتُ فيهِ . وَقَدْ بَذَلْنا أَقصى آلجُهودِ نُحاوِلُ آلخُروجَ بِهِ إلى عُرْضِ آلبَحْرِ . ثُمَّ هَبَّتْ عَواصِفُ عاتِيَةٌ حَمَلَتْنا بَعيدًا ، وَظَلَّتْ تَتَقاذَفُنا أَيّامًا ، إلى أَنْ أَلْقَتْ بِنا عَلى شاطِئِ جَزيرةٍ .

الأفعى

لَمْ تُكْتَبِ آلنَّجاةُ إلَّا لِثَلاثَةٍ مِنّا . وَلٰكِنَّ أَحْوالَنا كانَتْ سَيِّئَةً ، فَكانَ قَدْ مَضى عَلَيْنا وَقْتٌ طَويلٌ بِدونِ طَعامٍ أَوْ ماءٍ . وَفي آلجَزيرةِ وَجَدْنا أَشْجارَ فاكِهةٍ وَنُهَيْرًا عَذْبَ آلمِياهِ ، فَأَكَلْنا وَشَرِبْنا .

بَعْدَ تِلْكَ آلرِّحلةِ آلمُضْنِيةِ في آلطَّوْفِ ، غَزا آلنُّعاسُ أَجْفانَنا ؛ فَرُحْنا في سُباتٍ عَميقٍ ، وَلَمْ يوقِظْنا إلَّا فَحيحٌ مُتَواصِلٌ . وَنَظَرْنا حَوْلَنا .. وَيالَهَوْلِ ما رَأَيْنا ! رَأَيْنا أَفْعى ضَخْمةً آلْتَفَّتْ حَوْلَنا ، بِحَيْثُ لَمْ نَسْتَطِعِ آلفِرارَ . ثُمَّ بَدَأَتْ بِواحِدٍ مِنْ صاحِبَيَّ ، فَابْتَلَعَتْهُ دونَ أَنْ تَنْهَشَ لَحْمَهُ ، بَلْ رَأَيْناهُ وَهُوَ يَدْخُلُ في جَوْفِها ، وَسَمِعْنا صَيْحاتِ اسْتِغاثَتِهِ تَتَرَدَّدُ بَعْضَ آلوَقْتِ ثُمَّ تَهْمَدُ إلى آلأَبَدِ .

قَضَتِ آلأَفْعى آللَّيْلَةَ بِطولِها في مَكانِها ، عَلى حينَ تَمَلَّكَني وَصاحِبي آلذُّعْرُ ؛ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدُنا أَوْ يَنْبِسْ بِكَلِمةٍ . وَفي آلصَّباحِ ، انْسابَتْ زاحِفةً إلى

جُحْرِها . وَتَشاوَرْتُ وَصاحِبي فيما يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَهُ ، قَبْلَ أَنْ تَعودَ آلأَفْعى وَتَبْتَلِعَ أَحَدَنا . وَأَخَذْنا نَجولُ بَيْنَ آلأَشْجارِ وَنَقْطِفُ آلثِّمارَ وَنَرْتَوي مِنْ مِياهِ آلنُّهَيْرِ ، وَنَحْنُ نَبْحَثُ عَنْ كَهْفٍ نَخْتَبِئُ فيهِ ؛ وَلٰكِنَّنا فَشِلْنا في مُحاوَلَتِنا . وَقَبْلَ حُلولِ آلظَّلامِ صَعِدْنا شَجَرةً لِنَنامَ فَوْقَها . وَلَمّا كُنْتُ أَتَفَوَّقُ عَلى زَميلي في آلقُوَّةِ آلجِسْمِيَّةِ ، فَقَدِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْعَدَ أَعْلى مِنْهُ . وَلَمّا حَلَّ آللَّيْلُ ، عادَتِ آلأَفْعى تَبْحَثُ عَنّا . فَتَسَلَّقَتِ آلشَّجَرةَ وَابْتَلَعَتْ صاحِبي . وَظَلَلْتُ هُنَيْهةً أَسْمَعُ صَيْحاتِ آلاسْتِغاثةِ مِنْ جَوْفِ آلأَفْعى تَطِنُّ في أُذُنَيَّ . وَهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدًا .

في آلصَّباحِ ، غادَرَتِ آلأَفْعى آلمَكانَ ، فَساءَلْتُ نَفْسي : « ماذا عَسايَ أَنْ أَفْعَلَ ؟ سَتَعودُ آلأَفْعى لَيْلًا وَتَفْعَلُ بي ما فَعَلَتْ بِصاحِبَيَّ . هَلْ أَقْذِفُ بِنَفْسي في آلبَحْرِ لِأَنْجُوَ مِنْ شَرِّها ؟ »

بَعْدَ أَنْ تَناوَلْتُ بَعْضَ آلفاكِهةِ ، أَخَذْتُ أُفَكِّرُ ، وَأُفَكِّرُ . وَأَخيرًا قَرَّرْتُ أَنْ أَسيرَ عَلى شاطِئِ آلبَحْرِ . وَلِحُسْنِ آلحَظِّ لَمْ أَرَ لِلْقُرودِ أَثَرًا في تِلْكَ آلجَزيرةِ . وَلٰكِنّي رَأَيْتُ أَكْوامًا مِنَ آلخَشَبِ وَآلحِبالِ ، وَكانَتْ مِنْ بَقايا سُفُنٍ مُحَطَّمةٍ . وَعَلى آلفَوْرِ اخْتَرْتُ قِطَعًا طَويلةً مِنَ آلخَشَبِ وَضَعْتُها حَوْلَ قَدَمَيَّ وَفَوْقَ رَأْسي وَحَوْلَ جِسْمي وَجانِبَيَّ ، وَشَدَدْتُها بِآلحِبالِ لِأُثَبِّتَها ، وَرَقَدْتُ عَلى آلأَرْضِ انْتِظارًا لِما سَيَحْدُثُ .

لَمّا هَبَطَ آللَّيْلُ ، رَأَيْتُ آلأَفْعى تَفْتَحُ فَمَها وَتَنْقَضُّ عَلى رَأْسي ، وَعَلى جانِبَيَّ ، وَعَلى قَدَمَيَّ وَعَلى آلجانِبِ آلآخَرِ مِنْ جِسْمي ، وَلٰكِنَّها فَشِلَتْ في

آلوُصولِ إليَّ . فَقَدْ مَنَعَتْها قِطَعُ آلخَشَبِ مِنْ تَحْقيقِ مَأْرَبِها . وَرَغْمَ مُحاوَلاتِها آلمُتَكَرِّرَةِ لَمْ تُفْلِحْ في آلوُصُولِ إلى أيِّ عُضْوٍ مِنْ أعْضاءِ جِسْمي . وَلَمَّا أعْيَتْها آلحِيَلُ ، غادَرَتِ آلمَكانَ .

في آلصَّباحِ ، صَنَعْتُ لِنَفْسي زَوْرَقًا مِنْ بَقايا حُطامِ آلسُّفُنِ وَقِطَعِ آلخَشَبِ وَآلحِبالِ ، ثُمَّ جَمَعْتُ بَعْضَ آلفاكِهَةِ ، وَمَلأْتُ بَعْضَ آلأواني بِآلماءِ ، وَنَزَلْتُ آلبَحْرَ هَرَبًا مِنْ تِلْكَ آلجَزيرَةِ آلرَّهيبَةِ .

سَفينَـةُ آلنَّجـاةِ

لا أُريدُ أَنْ أَتَذَكَّرَ تِلْكَ آلأَيَّامَ آلَّتي قَضَيْتُها في عُرْضِ آلبَحْرِ على زَوْرَقٍ مَكْشوفٍ ، حينَما كانَتِ آلشَّمْسُ تَلْفَحُني بِحَرارَتِها آلمُتَوَهِّجَةِ ، وَآلأَمْواجُ تَقْذِفُ بِالزَّوْرَقِ هُنا وَهُناكَ . وَلٰكِنْ ، ما بَعْدَ آلعُسْرِ إِلَّا آليُسْرُ ، وَما بَعْدَ آلضِّيقِ إِلَّا آلفَرَجُ ، فَقَدْ لاحَتْ لي عَنْ بُعْدٍ سَفينَةٌ تَمْخُرُ عُبابَ آلبَحْرِ .

وَقَدْ لَعِبَ آلحَظُّ دَوْرَهُ ، عِنْدَما شاهَدَني بَحّارَتُها ؛ فَأَسْرَعوا لإِنْقاذي ، وَأَحْسَنوا مُعامَلَتي . وَقَدْ سَمِعَ آلرُّبّانُ وَبَعْضُ آلبَحّارَةِ بِمَأْساتي ؛ فَطَيَّبَ آلرُّبّانُ خاطِري قائِلًا : « سَنَحْمِلُكَ إلى آلبَصْرَةِ ، بَعْدَ زِيارَتِنا لِبَعْضِ آلأَماكِنِ ، حَيْثُ سَيَبيعُ آلتُّجّارُ بَضائِعَهُمْ وَيَبْتاعونَ غَيْرَها . وَإذا ما طابَتِ آلرّيحُ في رِحْلَتِنا ، حَمَلْناكَ إلى آلبَصْرَةِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ . »

وَفي أَوَّلِ ميناءٍ رَسَتْ فيهِ آلسَّفينَةُ ، سَمِعْتُ آلرُّبّانَ يُلْقي بِأَوامِرِهِ إلى

آلبَحّارَةِ : « أَحْضِروا بَضائِعَ آلسِّنْدِبادِ لِنَبيعَها وَنُسَلِّمَ ثَمَنَها إلى أُسْرَتِهِ في بَغْدادَ . »

وَلَمّا سَمِعْتُ ما قالَهُ آلرُّبّانُ ، تَقَدَّمْتُ مِنْهُ وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَحْمِلُ آلبَضائِعُ عَلاماتٍ مُمَيِّزَةً ؟ » لأَنّي أَضَعُ عَلاماتٍ خاصَّةً دائِمًا على بَضائِعي وَصَناديقي في جَميعِ رِحْلاتي . فَأَجابَني آلرُّبّانُ : « نَعَمْ ! إِنَّ آلبِضاعَةَ تَحْمِلُ عَلاماتٍ مُمَيِّزَةً . وَلٰكِنْ ، كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟! لَقَدْ مَضى عَلى هٰذِهِ آلبِضاعَةِ زَمَنٌ طَويلٌ وَهِيَ أَسْفَلُ جَميعِ آلبَضائِعِ آلأُخْرى ، وَقَدْ لَقِيَ صاحِبُها حَتْفَهُ في جَزيرَةِ آلرُّخِّ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ . »

فَفاجَأْتُهُ بِقَوْلي : « أَيُّها آلرُّبّانُ ! إِنَّ صاحِبَها لَمْ يَمُتْ ، بَلْ هُوَ حَيٌّ يُرْزَقُ ، فَأَنا آلسِّنْدِبادُ . »

وَرَوَيْتُ لَهُ ما جَرى لي مُنْذُ آلبِدايَةِ حَتّى آلنِّهايَةِ . وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ آلسَّهْلِ عَلى آلرُّبّانِ أَنْ يُصَدِّقَني في آلحالِ . وَلٰكِنَّهُ اقْتَنَعَ أَخيرًا بِصِدْقِ قَوْلي ، لِما أَوْرَدْتُهُ مِنْ أَدِلَّةٍ واضِحَةٍ . وَبَعْدَ أَنْ بِعْتُ بِضاعَتي وَاشْتَرَيْتُ غَيْرَها لأَبيعَها في بَغْدادَ ، وَجَدْتُ ثَرْوَتي قَدِ ازْدادَتْ أَضْعافًا مُضاعَفَةً بَعْدَ آلرِّحْلَةِ آلثّالِثَةِ . وَقَدْ عَزَمْتُ عَلى أَنْ أَعيشَ سَعيدًا في بَغْدادَ دونَ أَنْ أُغامِرَ في أَيَّةِ رِحْلَةٍ أُخْرى .

وَلٰكِنَّني أَخْلَفْتُ آلوَعْدَ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَدًا – إِنْ شاءَ آللهُ – عَنْ رِحْلَتي آلرّابِعَةِ .

الرِّحْلَةُ الرّابِعَةُ

في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ ، قَدِمَ لِزِيارَتي بَعْضُ التُّجّارِ ، وَجَلَسْنا نَسْتَعيدُ ذِكْرَياتِ الأَيّامِ الخالِيَةِ ، بِما فيها مِنْ رِحْلاتٍ ، وَبِما زُرْنا مِنْ أَماكِنَ . وَلَمْ يَحْضُرْنا في حَديثِنا إِلّا حُلْوُ الذِّكْرَياتِ . وَتَطَرَّقَ بِنا الحَديثُ إِلى ضَرورَةِ القِيامِ بِرِحْلَةٍ إِلى الشَّرْقِ ، لِما فيها مِنْ فَوائِدَ لَنا . وَما إِنِ اتَّفَقْنا حَتّى حَزَمْتُ بَعْضَ البَضائِعِ ، وَأَبْحَرْنا جَنوبًا فَشَرْقًا قاصِدينَ بُلْدانَ الشَّرْقِ الغَنِيَّةَ بِخَيْراتِها . وَقَدْ أَخَذَتِ السَّفينَةُ تَتَنَقَّلُ بِنا مِنْ جَزيرَةٍ إِلى جَزيرَةٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إِلى بَحْرٍ ، نَبيعُ وَنَشْتَري ، وَنُمَتِّعُ عُيونَنا بِمَباهِجِ الحَياةِ في تِلْكَ البِلادِ .

وَفي إِحْدى اللَّيالي ، وَنَحْنُ عَلى بُعْدٍ شاسِعٍ مِنَ الوَطَنِ ، هَبَّتْ عَلَيْنا عاصِفَةٌ هَوْجاءُ أَطاحَتْ بِالسَّفينَةِ وَقَلَبَتْها عَلى جانِبِها ، وَقَذَفَتْ بِنا وَسَطَ البَحْرِ . وَأَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمَتِهِ ، وَأَيْقَنْتُ وَأَنا أُشاهِدُ السَّفينَةَ تَغوصُ في أَعْماقِ البَحْرِ أَنَّها ساعَتي الأَخيرَةُ . وَبَيْنَما كُنْتُ أُصارِعُ الأَمْواجَ ، رَأَيْتُ لَوْحًا مِنَ الخَشَبِ يَقْتَرِبُ مِنّي ، فَأَمْسَكْتُ بِهِ بَيْنَ ذِراعَيَّ ، وَعاوَنْتُ بَعْضَ التُّجّارِ وَالبَحّارَةِ عَلى أَنْ يَتَعَلَّقوا بِأَلْواحٍ خَشَبِيَّةٍ أُخْرى كانَتْ تَطْفو فَوْقَ الماءِ .

أَحْياءٌ عَلى الشّاطِئِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّياحُ وَالأَمْواجُ تَدْفَعُنا إِلى أَنْ قَذَفَتْ بِنا عَلى اليابِسَةِ . وَمِنْ شِدَّةِ

ما لَحِقَنا مِنْ تَعَبٍ ، قَضَيْنا لَيْلَتَنا حَيْثُ كُنّا . وَما إِنْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، حَتّى طَلَعَ عَلَيْنا بَعْضُ الرِّجالِ ، وَكانوا شَديدي البَشاعَةِ . وَأَخَذونا إِلى مَلِكِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَوْسَعونا ضَرْبًا بِأَيْديهِمْ وَرَكْلًا بِأَقْدامِهِمْ .

وَلَمّا مَثُلْنا أَمامَ المَلِكِ ، أَمَرَ رِجالَهُ بِإِجْلاسِنا وَتَقْديمِ الطَّعامِ لَنا . وَكانَ الطَّعامُ غَريبًا ، لَمْ أَرَ لَهُ مَثيلًا مِنْ قَبْلُ . وَلٰكِنَّ الجوعَ دَفَعَ التُّجّارَ وَالبَحّارَةَ إِلى تَناوُلِهِ ، أَمّا أَنا ، فَلَمْ تَقْبَلْهُ نَفْسي ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ أَصابَني بِالغَثَيانِ .

ما أَسْعَدَني ! فَالحَظُّ لَمْ يُفارِقْني . لَقَدْ تَرَكَ الطَّعامُ أَثَرًا غَريبًا في أَصْحابي ، فَرَأَيْتُهُمْ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهَةٍ وَنَهَمٍ وَبَلاهَةٍ ، حَتّى إِنَّ الواحِدَ مِنْهُمْ كانَ يَغْرِفُ الطَّعامَ بِكِلْتا يَدَيْهِ لِيُشْبِعَ نَهَمَهُ . كُلُّ هٰذا كانَ يَجْري عَلى مَشْهَدٍ مِنّي . وَقَدْ تَذَكَّرْتُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ما كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ عَنْ هٰؤُلاءِ الرِّجالِ البَشِعينَ الَّذينَ إِذا وَقَعَ في أَيْديهِمْ أُناسٌ مِنْ بُلْدانٍ أُخْرى ، قَدَّموا لَهُمْ مِثْلَ هٰذا الطَّعامِ الَّذي يَجْعَلُ آكِليهِ يُقْبِلونَ عَلَيْهِ بِشَراهَةٍ ، فَيَزْدادونَ سِمْنَةً بِشَكْلٍ عَجيبٍ . وَبَعْدَها يُقَدَّمونَ وَجْبَةً شَهِيَّةً لِلرِّجالِ البَشِعينَ . وَلَمْ يَسَعْني إِلّا أَنْ أَصْرُخَ فيهِمْ ، طالِبًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَقَّفوا عَنِ الأَكْلِ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجيبوا لِدَعْوَتي ، إِذْ كانَ هَمُّهُمُ الوَحيدُ حَشْوَ بُطونِهِمْ ، وَلا شَيْءَ سِواهُ .

الفِرارُ

أَخَذَ أَصْحابي يَزْدادونَ سِمْنَةً ، يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ، وَكانَ الرِّجالُ البَشِعونَ لا يُفارِقونَهُمْ ، وَلا يَنْقَطِعونَ عَنْ حَثِّهِمْ عَلى تَناوُلِ المَزيدِ مِنَ الطَّعامِ ، في الوَقْتِ



الَّذي كانُوا يَرَوْنَني أَزْدادُ هُزالًا ، لِانْقِطاعي عَنِ الطَّعامِ ، وَلا يَحْفِلُونَ بي ، لِأَنَّ ما عِنْدَهُمْ يَكْفيهِمْ .

وَكانَ الأَلَمُ يَعْصِرُني ، وَأَنا أَرى ما يَفْعَلُهُ أَصْحابي ، وَأَتَخَيَّلُ المَصيرَ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ . فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَيْسَ لَدَيَّ مِنْ سَبيلٍ إِلى إِنْقاذِهِمْ ، وَلٰكِنْ عَلَيَّ أَنْ أَنْجُوَ بِنَفْسي ، لِأَنَّ بَقائي دُونَ طَعامٍ يُعَجِّلُ بِهَلاكي . إِنَّ أَصْحابي لَمْ يَسْتَطيعُوا الابْتِعادَ عَنِ الرِّجالِ البَشِعينَ ، بَلْ قُلْ إِنَّهُمْ ما كانُوا يُريدُونَ ذٰلِكَ ، مادامَ الرِّجالُ البَشِعُونَ لا يَنْقَطِعُونَ عَنْ وَضْعِ الطَّعامِ أَمامَهُمْ . وَلَمْ يُكَلِّفْ

أَحَدٌ مِنَ البَشِعينَ نَفْسَهُ النَّظَرَ إِلى رَجُلٍ هَزيلٍ مِثْلي . وَقَدْ يَسَّرَ ذٰلِكَ سُبُلَ النَّجاةِ أَمامي ، عِنْدَما اخْتَبَأْتُ ذاتَ يَوْمٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، وَمِنْها سِرْتُ إِلى الغابَةِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ بَعْضَ الفاكِهَةِ الَّتي أَعْرِفُها ، وَالَّتي لا يُشَكِّلُ تَناوُلُها خَطَرًا .

وَأَفادَتْني الفاكِهَةُ في اسْتِعادَةِ قُوَّتي ، فاسْتَطَعْتُ الإِسْراعَ في سَيْري . وَقَدْ قَضَيْتُ أُسْبوعًا ، أَسيرُ مَرَّةً وَأَتَوَقَّفُ أُخْرى لِتَناوُلِ الفاكِهَةِ وَشُرْبِ الماءِ ، إِلى أَنْ لَقيتُ جَماعَةً مِنَ الرِّجالِ . وَعِنْدَما رَآني أُولٰئِكَ الرِّجالُ أَسْرَعُوا إِلَيَّ ، وَسُيُوفُهُمْ في أَيْديهِمْ ، فَصَرَخْتُ فيهِمْ : « أَرْجُوكُمْ أَنْ تَسْتَمِعُوا إِلَيَّ . »

وَكَشَفْتُ لَهُمْ عَنْ هُوِيَّتي وَحَدَّثْتُهُمْ عَنِ البَلَدِ الَّذي قَدِمْتُ مِنْهُ . وَأَخْبَرُوني بِأَنَّ مِنْ عادَتِهِمْ أَنْ يَجيئُوا مَرَّةً كُلَّ عامٍ إِلى تِلْكَ الجَزيرَةِ وَلٰكِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ شَرَّ الرِّجالِ البَشِعينَ .

سَرْجُ المَلِكِ

وَمِمَّا قالُوهُ لي : « لَمْ تُكْتَبِ السَّلامَةُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ وَطِئَتْ قَدَماهُ أَرْضَ هٰذِهِ الجَزيرَةِ . » وَاصْطَحَبُوني مَعَهُمْ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلى جَزيرَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعَ المَلِكُ حِكايَتي ، وَرَغِبَ في التَّحَدُّثِ إِلَيَّ . وَقَدْ كانَ مِثالًا لِلطِّيبَةِ وَكَرَمِ الخُلُقِ ، حَتَّى إِنَّهُ خَصَّصَ لي غُرْفَةً في قَصْرِهِ الفَخْمِ . وَكَثيرًا ما كانَ يَسْتَدْعيني لِلاسْتِماعِ إِلى مُغامَراتي في رِحْلاتي ، وَأَحاديثي عَنْ مَدينَةِ بَغْدادَ العَظيمَةِ . وَالحَقُّ يُقالُ إِنَّ عاصِمَةَ مَمْلَكَتِهِ كانَتْ عامِرَةً بِأَهْلِها ، غَنِيَّةً في كُلِّ ناحِيَةٍ مِنْ نَواحي الحَياةِ إِلَّا في شَيْءٍ واحِدٍ . فَقَدْ كانَ النَّاسُ يَرْكَبُونَ الخَيْلَ بِلا سُرُوجٍ ، مَعَ أَصالَةِ تِلْكَ الخُيُولِ وَبَراعَةِ فُرْسانِها .

وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلْمَلِكَ يَوْمًا : « أَيُّها ٱلْمَلِكُ ٱلْعَظيمُ ، لِمَ لا تَسْتَعْمِلُ ٱلسَّرْجَ عِنْدَ رُكوبِكَ ٱلْحِصانَ ؟ »

دَهِشَ ٱلْمَلِكُ وَسَأَلَني : « ماذا تَقُولُ ؟ ما هُوَ ٱلسَّرْجُ ٱلَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟ »

وَكانَ جَوابي : « هَلْ تَأْذَنُ لي يامَوْلايَ أَنْ أَصْنَعَ لَكَ سَرْجًا ، إذا ما اسْتَعْمَلْتَهُ ، وَجَدْتَ فيهِ ٱلْجَوابَ عَنْ سُؤالِكَ ، وَلَمَسْتَ عَظيمَ فَوائِدِهِ ؟ »

وَسَرْعانَ ما صَنَعْتُ سَرْجًا فاخِرًا ، وَوَضَعْتُهُ عَلى ظَهْرِ حِصانِهِ . وَبَعْدَ أَنْ رَكِبَهُ سُرَّ بِٱلسَّرْجِ كَثيرًا . وَانْهالَتْ عَلَيَّ بَعْدَها طَلَباتُ رِجالِ حاشِيَةِ ٱلْمَلِكِ وَعِلْيَةِ ٱلْقَوْمِ لِصُنْعِ ٱلسُّرُوجِ ، فَكَسَبْتُ ٱلْأَمْوالَ ٱلْكَثيرَةَ مِنْ صِناعَتِها ، عِلاوَةً عَلى ٱلسَّعادَةِ ٱلَّتي كُنْتُ أُحِسُّ بِها لِلصَّداقَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَرْبُطُني بِٱلْمَلِكِ وَرِجالِهِ .

زواجي

ذاتَ يَوْمٍ ، قالَ لِيَ ٱلْمَلِكُ : « لَقَدْ أَصْبَحْتَ واحِدًا مِنّا ، نُوليكَ صادِقَ حُبِّنا كَأَخٍ لَنا . وَلٰكِنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا يُقَرِّبُكَ مِنّا أَكْثَرَ . »

وَبِكُلِّ أَدَبٍ قُلْتُ لَهُ : « أَيُّها ٱلْمَلِكُ ٱلْعَظيمُ ! أَمْرُكَ مُطاعٌ ، وَلَنْ أَرُدَّ لَكَ أَمْرًا . »

أَثْلَجَتْ كَلِماتي صَدْرَهُ ، فَابْتَسَمَ قائِلًا : « عَلَيْكَ بِٱلزَّواجِ يابُنَيَّ ! فَفي

ٱلْمَدينَةِ فَتاةٌ عَلى جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ ٱلْجَمالِ وَٱلثَّراءِ ، وَهِيَ ابْنَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، وَهٰأَنَذا أَدْعوكَ إلى ٱلاقْتِرانِ بِها . »

وَسَرْعانَ ما تَمَّتْ مَراسِمُ ٱلزَّواجِ ، وَزُفَّتِ ٱلْعَروسُ إِلَيَّ . وَكَما قالَ ٱلْمَلِكُ فَإِنَّ زَوْجَتي كانَتْ ذاتَ ثَرْوَةٍ وَجَمالٍ ، وَكانَتْ تَتَمَتَّعُ بِما هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَدْ وَجَدْتُ فيها ما جَعَلَني أُحِبُّها وَتُحِبُّني . وَعِشْنا في مُنْتَهى ٱلسَّعادَةِ لِعِدَّةِ أَسابيعَ .

وَذاتَ يَوْمٍ ماتَتْ زَوْجَةُ أَحَدِ أَصْدِقائي ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ مُعَزِّيًا ، عَمَلًا بِما تَقْتَضيهِ رَوابِطُ ٱلصَّداقَةِ ساعَةَ ٱلْحُزْنِ . وَلٰكِنّي وَجَدْتُهُ لَيْسَ حَزينًا فَقَطْ ، بَلْ مَريضًا . وَلَمّا اقْتَرَبْتُ مِنْ فِراشِهِ ، خاطَبْتُهُ بِقَوْلي : « ياصَديقي ! إِنَّها إِرادَةُ ٱللهِ ، وَلا يَحْسُنُ بِالإِنْسانِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ إِلى ٱلْحُزْنِ ، إِذا فَقَدَ زَوْجَتَهُ . وَما عَلَيْكَ إِلّا ٱلصَّبْرُ ، وَتَعْويدُ نَفْسِكَ عَلى ٱلْعَيْشِ بِدونِها . »

كَهْفُ ٱلْمَوْتـى

كانَتْ مُفاجَأَةً لي عِنْدَما رَدَّ عَلَيَّ قائِلًا : « ماذا تَقُولُ ياصاحِبي ؟ أَلا تَعْرِفُ ٱلقانونَ ٱلَّذي يَحْكُمُنا في هٰذا ٱلْبَلَدِ ، وَٱلَّذي يَقْضي بِأَنْ يُدْفَنَ ٱلْحَيُّ مَعَ ٱلْمَيِّتِ ؟ فَالزَّوْجَةُ إِذا ماتَ زَوْجُها ، دُفِنَتْ مَعَهُ حَيَّةً ، كَما أَنَّ ٱلزَّوْجَ إِذا ماتَتْ زَوْجَتُهُ ، دُفِنَ مَعَها حَيًّا . اعْلَمْ ياأَخي ، إِنَّهُمْ سَيُلْقُونَ بي بَعْدَ ظُهْرِ هٰذا ٱلْيَوْمِ ، في كَهْفِ ٱلْمَوْتى إِلى أَنْ أَموتَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ، حُمِلَ جُثْمانُ ٱلزَّوْجَةِ خارِجَ ٱلْمَدينَةِ ، إِلى مَكانٍ



في جانِبِ ٱلجَبَلِ ، وَأزاحُوا صَخْرَةً كَبيرةً عَنْ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ ، وَأَلْقَوْا بِالجُثْمانِ فيهِ . ثُمَّ جاءُوا بِالْحِبالِ وَاسْتَخْدَموها في إِنْزالِ صَديقي في كَهْفِ ٱلمَوْتَى ، إِلى جانِبِ زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ أَعادوا ٱلصَّخْرَةَ إِلى مَكانِها . وَكانَ ٱلجُنودُ يَمْنَعونَ مَنْ يُحاوِلُ ٱلاقْتِرابَ مِنَ ٱلكَهْفِ . وَلَمّا سَأَلْتُ ٱلمَلِكَ عَنْ ذٰلِكَ أَجابَني : « إِنَّها عادَةٌ قَديمَةٌ مُتَوارَثَةٌ ، وَلا أَسْتَطيعُ إِلْغاءَها . »

في كَهْفِ ٱلمَوْتى

لَمْ يَمْضِ عَلى زَواجيَ ٱلسَّعيدِ سِوى بِضْعَةِ أَسابيعَ ، حَتّى مَرِضَتْ زَوْجَتي فَتْرَةً ثُمَّ ماتَتْ . وَحَضَرَ ٱلقَوْمُ لِنَقْلِ جُثْمانِها إِلى كَهْفِ ٱلمَوْتى ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « لَنْ تَأْخُذوني مَعَها إِلى ٱلقَبْرِ ، لِأَنّي لَسْتُ مِنْ بَلَدِكُمْ ، وَلا يَنْطَبِقُ عَلَيَّ قانونُكُمْ . » غَيْرَ أَنَّهُمْ أَخَذوا يُواسُونَني في مُصابي وَطَلَبوا إِلَيَّ ٱلتَّحَلّي بِٱلشَّجاعَةِ ، وَأَبْلَغوني أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ أَلْحَقَ بِزَوْجَتي لِأَنَّني صِرْتُ – في نَظَرِهِمْ – واحِدًا مِنْهُمْ .

لَمْ أَشْعُرْ إِلّا وَقَدْ لَفُّوا ٱلحِبالَ حَوْلَ جِسْمي ، وَحَمَلُوني إِلى ٱلكَهْفِ . وَهُناكَ خَلَّصوني مِنَ ٱلقُيودِ ، وَأَرْغَموني عَلى ٱلنُّزولِ إِلى ٱلكَهْفِ بِاسْتِخْدامِ ٱلحِبالِ . وَسَدُّوا بابَهُ بِٱلصَّخْرَةِ ، فَلَمْ أَعُدْ أَرى شَيْئًا داخِلَ ٱلكَهْفِ . وَبَعْدَ قَليلٍ لاحَ لي شُعاعٌ ضَئيلٌ مِنَ ٱلنّورِ ، وَتَبَيَّنَ لي أَنَّهُمْ كانوا يَدْفِنونَ مَعَ ٱلمَوْتى جَواهِرَهُمْ وَحُلِيَّهُمْ . وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُمَيِّزَ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلحِبالِ ٱلَّتي كانَتْ تُسْتَعْمَلُ في إِنْزالِ مَنْ يُدْفَنونَ أَحْياءً .

فَجْأَةً سَمِعْتُ حَرَكَةً في الْكَهْفِ ، وَرَأَيْتُ حَيَوانًا يُشْبِهُ الثَّعْلَبَ . وَلَمّا حاوَلْتُ الْإِمْساكَ بِهِ عَضَّ يَدي وَأَفْلَتَ مِنّي هارِبًا . وَدَعاني هٰذا الْحادِثُ إِلى التَّفْكيرِ : « إِنَّ وُجودَ الْحَيَواناتِ دَليلٌ عَلى وُجودِ فُتْحَةٍ تَدْخُلُ مِنْها إِلى الْكَهْفِ . وَعَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ مِنْها دَليلي في الْخُروجِ مِنْهُ . »

جُحْرُ الثَّعْلَبِ

حاوَلْتُ أَنْ أَرْمِيَ حَبْلًا حَوْلَ أَحَدِ هٰذِهِ الْحَيَواناتِ ، وَلٰكِنّي لَمْ أُفْلِحْ ؛ فَكَرَّرْتُ الْمُحاوَلَةَ عَشَراتِ الْمَرّاتِ . وَأَخيرًا رَمَيْتُ الْحَبْلَ فَالْتَفَّ حَوْلَ أَحَدِها فَجَرى ، وَتَبِعْتُهُ وَالْحَبْلُ في يَدي ، إِلى نِهايَةِ الْكَهْفِ ، حَتّى وَجَدْتُ فُتْحَةً يَسْتَطيعُ ثَعْلَبٌ أَنْ يَمُرَّ مِنْها ، وَلٰكِنْ تَعَذَّرَ عَلَيَّ ذٰلِكَ .

أَخَذْتُ في تَوْسيعِ الْفُتْحَةِ ، وَاسْتَغْرَقَ ذٰلِكَ مِنّي وَقْتًا طَويلًا ، وَنَجَحْتُ في الْخُروجِ حَيْثُ الْهَواءُ الطَّلْقُ وَالسَّماءُ الصّافِيَةُ . وَوَجَدْتُ نَفْسي قَريبًا مِنَ الْبَحْرِ أَسْفَلَ جُرْفٍ صَخْرِيٍّ عالٍ لا يُمْكِنُ تَسَلُّقُهُ صُعودًا أَوْ نُزولًا . ثُمَّ وَجَدْتُ الْماءَ في أَحَدِ النُّهَيْراتِ ، وَشَجَرَةَ فاكِهَةٍ ، فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ ، وَجَلَسْتُ طَلَبًا لِلرّاحَةِ .

جَلَسْتُ أُفَكِّرُ : « عَلَيَّ بِالِانْتِظارِ إِلى حينِ قُدومِ سَفينَةٍ لا تَكونُ وِجْهَتُها الْمَدينَةَ الَّتي كُنْتُ فيها ، ما دامَ الطَّعامُ وَالْماءُ مُتَوَفِّرَيْنِ . أَيَحْسُنُ بي أَنْ أَعودَ إِلى كَهْفِ الْمَوْتى لِأُخْرِجَ بَعْضَ الْجَواهِرِ ؟ وَلٰكِنْ إِذا عُدْتُ فَهَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْتَدِلَّ عَلى طَريقِ الْخُروجِ ؟ »

الْجَواهِرُ وَالسَّفينَةُ

تَذَكَّرْتُ الْحِبالَ فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَوْ صَنَعْتُ حَبْلًا طَويلًا مِنْ هٰذِهِ الْحِبالِ الْقَصيرَةِ ، فَسَيُساعِدُني في الدُّخولِ إِلى الْكَهْفِ وَالْخُروجِ مِنْهُ . » وَعَلى الْفَوْرِ صَنَعْتُ الْحَبْلَ ، وَدَخَلْتُ الْكَهْفَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، وَأَخْرَجْتُ آلافَ الْجَواهِرِ وَوَضَعْتُها في أَكْياسٍ صَنَعْتُها مِنَ الْقُماشِ الَّذي كانَ مَلْفوفًا حَوْلَ أَجْسادِ الْمَوْتى . وَبَقيتُ في انْتِظارِ سَفينَةٍ تَمُرُّ .

وَجاءَ الْفَرَجُ ، عِنْدَما رَسَتْ سَفينَةٌ لِتَتَزَوَّدَ بِالْماءِ . وَرَوَيْتُ لِلرُّبّانِ بَعْضَ ما حَدَثَ لي ، دونَ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِقِصَّتي في الْمَدينَةِ خَشْيَةَ أَنْ يَكونَ بَيْنَ الرُّكّابِ أَحَدٌ مِنْ سُكّانِها . وَقَدَّمْتُ بَعْضَ الْجَواهِرِ هَدِيَّةً إِلى الرُّبّانِ ، فَاعْتَذَرَ عَنْ عَدَمِ قَبولِها قائِلًا : « إِنَّنا نَحْنُ أَبْناءَ الْبَصْرَةِ إِذا وَجَدْنا مَنْ قَذَفَتْ بِهِ الرّيحُ أَوِ الْبَحْرُ عَلى أَيَّةِ جَزيرَةٍ ، حَمَلْناهُ عَلى سُفُنِنا وَقَدَّمْنا لَهُ الطَّعامَ وَالْماءَ وَالْكِساءَ . وَلا نَبْخَلُ عَلَيْهِ بِتَوْصيلِهِ إِلى بَلَدِهِ . وَلَيْسَ مِنْ شِيَمِنا أَنْ نَتَقاضى أَجْرًا ، أَيًّا كانَ ، مِنْ أَحَدٍ . وَكُلُّ ما نَعْمَلُهُ لَيْسَ إِلّا في سَبيلِ اللهِ . »

نِهايَةُ الرِّحْلَةِ الرّابِعَةِ

بَلَغَتِ السَّفينَةُ ميناءَ الْبَصْرَةِ في الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَها ، فَغادَرْتُها إِلى بَغْدادَ ، وَقَدْ فَرِحَ بي أَهْلي وَأَصْدِقائي . وَتَصَدَّقْتُ بِالْمالِ وَالثِّيابِ وَالطَّعامِ عَلى الْفُقَراءِ ، وَقَدَّمْتُ الْعَوْنَ لِلْمُحْتاجينَ .

عُدْتُ وَقُلْتُ : « لَنْ أُغادِرَ مَدينَتي بَعْدَ آلآنَ ، وَسَتَكونُ هٰذِهِ آخِرَ رِحْلةٍ لي في دُنْيايَ . »

وَلٰكِنِّي نَقَضْتُ آلعَهْدَ ، وَلَمْ أَلْتَزِمْ بِما وَعَدْتُ ، وَلي حَديثٌ مَعَكُمْ أَيُّها آلأَصْدِقاءُ ، غَدًا إنْ شاءَ اللهُ .

الرِّحْلَةُ آلخامِسةُ

تَذَكَّرْتُ ، في حينِهِ ، مَحاسِنَ رِحْلاتي ، وَلَمْ أَتَذَكَّرْ مَساوِئَها .

فَفي يَوْمٍ مِنَ آلأَيَّامِ ، رَأَيْتُ جَماعةً يَبْنونَ سَفينةً كَبيرةً ، فَاشْتَرَيْتُها مِنْهُمْ ، وَأَبْحَرْتُ عَلَيْها ، وَمَعي بَعْضُ آلتُّجّارِ ، في رِحْلَتي آلخامِسةِ . وَقَدْ تَنَقَّلْنا مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزيرةٍ إلى أُخْرى نَبيعُ وَنَشْتَري وَنُمَتِّعُ أَعْيُنَنا بِجَمالِ الطَّبيعةِ .

وَفي أَحَدِ آلأَيَّامِ ، رَسَتْ بِنا آلسَّفينةُ عَلى جَزيرةٍ كَبيرةٍ ، لَمْ نُشاهِدْ فيها إنْسانًا أَوْ حَيَوانًا أَوْ نَباتًا . وَنَزَلَ آلتُّجّارُ إلى آليابِسةِ لِيَجُولوا في آلجَزيرةِ . وَبَيْنَما هُم يَجُولُون ، تَوَقَّفُوا عِنْدَ شَيْءٍ ضَخْمٍ ، أَبْيَضِ آللَّوْنِ ، شَديدِ آلشَّبَهِ بِآلقُبَّةِ . فَصَرَخْتُ فيهِمْ أَلّا يَمَسُّوا ذٰلِكَ آلشَّيْءَ لِأَنَّهُ بَيْضةُ رُخٍّ . وَنَصَحْتُهُمْ بِآلِابْتِعادِ عَنْها قَبْلَ فَواتِ آلأَوانِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا إلى نُصْحي ، بَلْ أَخَذُوا يُحْدِثونَ بِها ثَقْبًا ، لِيَعْرِفُوا ما بِداخِلِها ؛ وَإِذا بِصَوْتٍ كَالبُكاءِ يَنْبَعِثُ مِنْ داخِلِ آلبَيْضةِ . كانَ فَرْخُ آلرُّخِّ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ آلأَخيرةَ . وَمِنْ أَعالي آلجَوِّ سُمِعَ صُراخٌ رَدًّا عَلى صُراخِ فَرْخِ آلرُّخِّ . وَانْقَلَبَ آلنَّهارُ إلى لَيْلٍ ، حِينَما حامَ في آلجَوِّ رُخٌّ ضَخْمٌ وَرَفيقَتُهُ ، فَتَوَقَّعْتُ هَلاكَنا جَميعًا ، وَلٰكِنَّهُما طارا بَعيدًا . وَفي آلحالِ ، طَلَبْتُ مِنَ آلتُّجّارِ آلعَوْدةَ بِأَقْصى سُرْعةٍ ، لِنُبْحِرَ بَعيدًا عَنِ آلجَزيرةِ وَنَنْجُوَ بِأَنْفُسِنا .

سَفينَتي تَتَحطَّمُ

اسْتَمَعَ ٱلتُّجَّارُ إلى نَصيحَتي ، وَأَقْلَعَتْ بِنا ٱلسَّفينَةُ إلى عُرْضِ ٱلبَحْرِ وَقَدْ خطَرَ بِبالي أَنْ أَسْأَلَ نَفْسي : « هَلْ سَنُفْلِتُ مِنْهُما ؟ » وَقَبْلَ أَنْ أُتِمَّ سُؤالي ، شاهَدْنا ٱلرُّخَّيْنِ يَعودانِ ، يَحْمِلُ ٱلواحِدُ مِنْهُما صَخْرَةً كَبيرَةً بِحَجْمِ ٱلبَيْتِ . وَماهِيَ إِلَّا لَحَظاتٌ ، حَتَّى أَخَذَ رُخٌّ يَحُومُ فَوْقَنا ، ثُمَّ أَلْقى بِٱلصَّخْرَةِ عَلَيْنا ، وَلٰكِنَّ ٱلرُّبَّانَ ٱسْتَطاعَ أَنْ يَتَفاداها ، فَسَقَطَتْ في ٱلبَحْرِ ، وَٱرْتَفَعَتْ مِياهُهُ ، وَكَأَنَّها ٱلجِبالُ ، وَأَخَذَتْ تَقْذِفُ بِٱلسَّفينَةِ هُنا وَهُناكَ .

لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلرُّبَّانُ أَنْ يَتَفادى ٱلصَّخْرَةَ ٱلثَّانِيَةَ ٱلَّتي سَقَطَتْ عَلى ٱلسَّفينَةِ ، فَكَتَبَتِ ٱلسَّطْرَ ٱلأَخيرَ مِنْ حَياةِ سَفينَتي ٱلجَديدَةِ . وَقَدْ لَقِيَ مُعْظَمُ ٱلتُّجَّارِ وَٱلبَحَّارَةِ حَتْفَهُمْ . وَكُلُّ ما أَذْكُرُهُ أَنِّي وَجَدْتُ نَفْسي في صِراعٍ مَعَ ٱلبَحْرِ ، لَمْ يُنْقِذْني مِنْهُ إِلَّا لَوْحٌ خَشَبِيٌّ مِنْ حُطامِ ٱلسَّفينَةِ كانَ طافِيًا عَلى مَقْرَبَةٍ مِنِّي ، فَتَشَبَّثْتُ بِهِ .

كانَ لِهٰذا ٱللَّوْحِ ٱلخَشَبِيِّ ٱلفَضْلُ في إِنْقاذي ، وَخاصَّةً عِنْدَما دَفَعَتْني ٱلرِّيحُ وَٱلأَمْواجُ إِلى شاطِئِ جَزيرَةٍ بَلَغْتُهُ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ بِلَياليها . وَحَمِدْتُ ٱللهَ عِنْدَما وَجَدْتُ جَدْوَلَ ماءٍ عَذْبٍ ، وَأَشْجارَ فاكِهَةٍ . وَأَسْرَعْتُ أَقْطِفُ ٱلثِّمارَ وَآكُلُها ، وَأَعُبُّ مِنْ ماءِ ٱلنَّهْرِ .

شَيْخُ ٱلبَحْرِ

سِرْتُ أَبْحَثُ في ٱلجَزيرَةِ ، لَعَلِّي أَجِدُ بَشَرًا يُقيمُونَ فيها . وَلَمْ يَطُلْ بِيَ ٱلسَّيْرُ ، إِذْ رَأَيْتُ عَجوزًا بَدا لي مَريضًا واهِنًا . عِنْدَها قُلْتُ لِنَفْسي : « تُرى أَيَكونُ هٰذا ٱلعَجوزُ بَحَّارًا تَحَطَّمَتْ سَفينَتُهُ ، وَقَذَفَتْ بِهِ ٱلأَمْواجُ إِلى هٰذِهِ ٱلجَزيرَةِ ؟ »

كانَ ٱلعَجوزُ يَجْلِسُ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْ جَدْوَلِ ٱلماءِ . وَلَمَّا ٱقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، حَيَّيْتُهُ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ . وَكَلَّمْتُهُ ثانِيَةً ، فَٱلْتَزَمَ ٱلصَّمْتَ ، وَٱكْتَفى بِتَحْريكِ يَدِهِ ناحِيَةَ جَدْوَلِ ٱلماءِ . وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ يُريدُني أَنْ أَعْبُرَ بِهِ ٱلجَدْوَلَ إِلى ٱلضِّفَّةِ ٱلأُخْرى ، فَحَمَلْتُهُ عَلى ظَهْري ، ٱسْتِعْدادًا لِٱجْتِيازِ ٱلماءِ . لٰكِنَّهُ فَجْأَةً أَحاطَ عُنُقي بِساقَيْهِ ٱللَّتَيْنِ كانَتا – عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ هُزالِهِما – صُلْبَتَيْنِ قَوِيَّتَيْنِ .

وَلَمَّا حاوَلْتُ إِنْزالَهُ ، رَكَلَني بِقَدَمِهِ ، وَشَدَّ عَلى عُنُقي بِيَدَيْهِ وَساقَيْهِ حَتَّى كادَ يَعْصِرُها ، وَٱرْتَسَمَ شَبَحُ ٱلمَوْتِ أَمامَ عَيْنَيَّ . وَقَدْ بَقيتُ عَلى تِلْكَ ٱلحالِ أَيَّامًا . وَكُنْتُ في ٱللَّيْلِ أَنامُ عَلى ٱلأَرْضِ وَساقاهُ حَوْلَ عُنُقي ، وَفي ٱلنَّهارِ ما كُنْتُ أَتَناوَلُ فاكِهَةً أَوْ أَشْرَبُ ماءً إِلَّا حَسَبَ مَشيئَتِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْني قَطُّ ، بَلْ كانَ يَعْمِدُ إِلى رَكْلي بِقَدَمِهِ لِأَفْعَلَ ما يُريدُهُ مِنِّي .

وَذاتَ يَوْمٍ ، وَجَدْتُ فاكِهَةً مُخَدِّرَةً كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ عَنْها في بَعْضِ أَسْفاري . فَتَناوَلْتُ ثَمَرَةً وَتَظاهَرْتُ بِأَنِّي آكُلُ مِنْها . ثُمَّ رُحْتُ أَتَمايَلُ فَرَحًا ، وَأَقولُ : « ما أَحْلى هٰذِهِ ٱلثَّمَرَةَ ! آهٍ لَوْ آكُلُ مِنْها ٱلكَثيرَ ! » وَلَمَّا سَمِعَني

ٱلعجوزُ ، رَكَلَني بِقَدَمِهِ ، وَأَشارَ إلى ٱلفاكِهةِ ، فَأَعْطَيْتُهُ مِنها . وَلَمَّا ٱسْتَحْسَنَ مَذاقَها ، أَخَذَ يَأْكُلُ مِنها بِشَرَهٍ إلى أَنْ تَراخَتْ ساقاهُ مِنْ حَولِ عُنُقي ، وَفَقَدَ وَعْيَهُ . عِنْدَئِذٍ أَلْقَيْتُ بِهِ أَرْضًا ، وَدَقَقْتُ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ .

سِرْتُ إلى شاطِئِ ٱلبَحْرِ حَيْثُ وَجَدْتُ سَفينةً ، نَزَلَ بَعْضُ بَحّارَتِها لِيَتَزَوَّدُوا بِالماءِ ٱلعَذْبِ . وَلَمَّا رَوَيْتُ لَهُمْ ما حَدَثَ لي ، قالُوا : « إنَّ ٱلعَجوزَ ٱلَّذي رَأَيْتَهُ ، هُوَ شَيْخُ ٱلبَحْرِ . وَما مِنْ أَحَدٍ قَبْلَكَ ، لَفَّ ٱلشَّيْخُ ساقَيْهِ حَوْلَ عُنُقِهِ ، إلَّا ماتَ . لَقَدْ قَضى عَلى كَثيرٍ مِنَ ٱلبَحّارَةِ بِنَفْسِ ٱلطَّريقَةِ . وَفي كُلِّ مَرَّةٍ نَقْصِدُ ٱلجَزيرةَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مَعَنا تِسْعَةٌ أَوْ عَشَرَةٌ مِنَ ٱلبَحّارةِ لِخَوْفِنا مِنْ شَيْخِ ٱلبَحْرِ . »

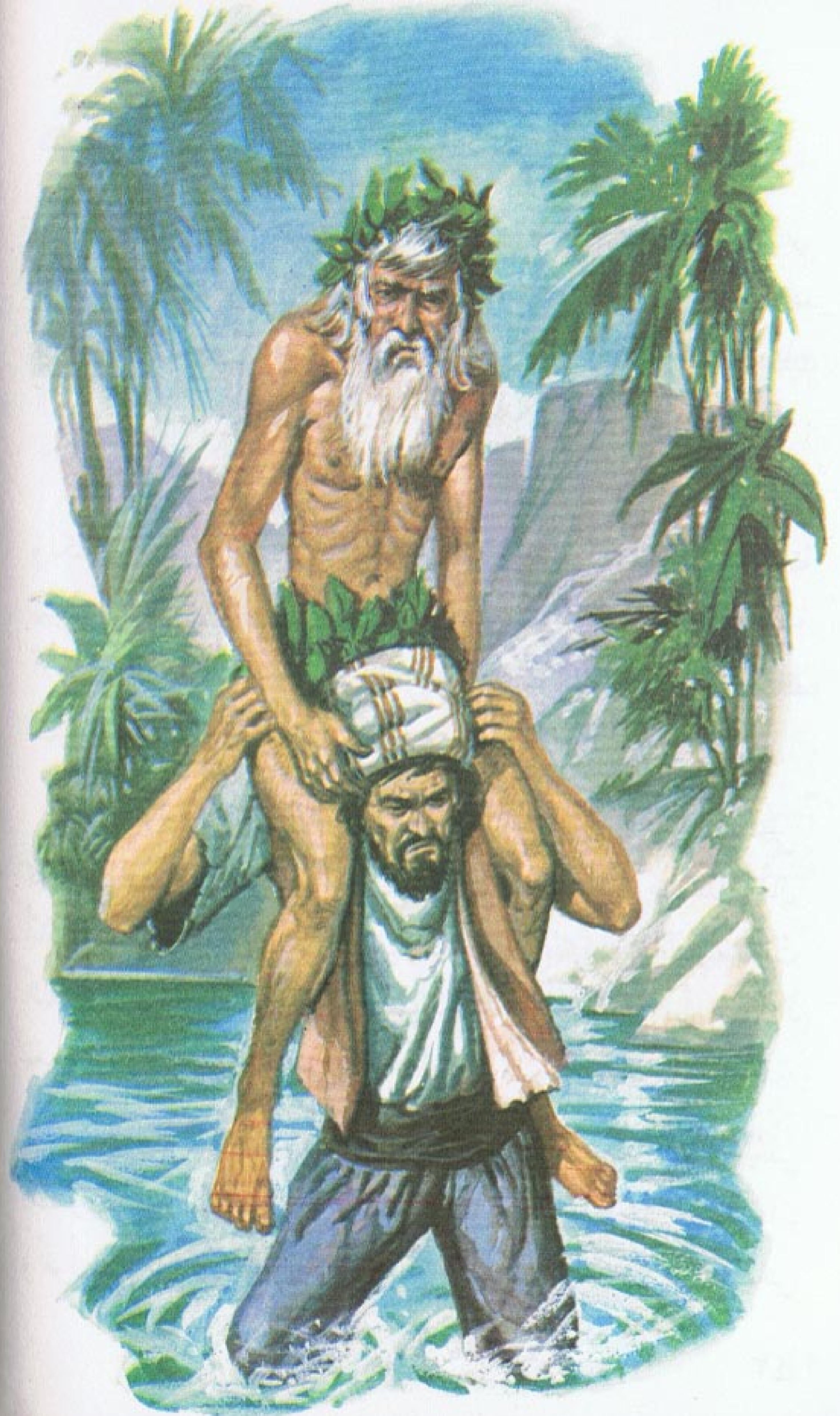
سَأَلْتُهُمْ : « لِماذا إذًا تَجيئونَ إلى هٰذِهِ ٱلجَزيرةِ ؟ »

أَجابُوني : « نَجيءُ لِنَجْمَعَ ثِمارَ جَوْزِ ٱلهِنْدِ . تَعالَ مَعَنا وَمَعَكَ أَكْياسٌ كَبيرةٌ لِجَوْزِ ٱلهِنْدِ ، وَكيسٌ صَغيرٌ مَمْلوءٌ بِٱلحِجارةِ ٱلصَّغيرةِ . »

القُرودُ وَجَوْزُ ٱلهِنْدِ

أَخَذْتُ مَعي ما طَلَبوهُ مِنّي ، وَسِرْنا إلى غابةٍ مِنْ أَشْجارِ جَوْزِ ٱلهِنْدِ ، وَهِيَ أَشْجارٌ شَديدةُ ٱلاِرْتِفاعِ ، مَلْساءُ ٱلجُذوعِ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ تَسَلُّقَها ، وَجَميعُ ثِمارِها في أَعْلاها حَيْثُ نَرى ٱلقُرودَ .

بَدَأْنا نَرْجُمُ ٱلقُرودَ بِٱلحِجارةِ ، فَٱغْتاظَتْ وَأَخَذَتْ تَقْذِفُنا بِثِمارِ جَوْزِ



الهِنْدِ . وَتَجَمَّعَتْ لَدَيْنا كَمِّيَّةٌ كَبيرةٌ في وَقْتٍ لَيْسَ بِطَويلٍ ، وَأَخَذْنا نَنْزِعُ قُشورَها ، وَنَمْلأُ بِالثِّمارِ أَكْياسَنا . وَعِنْدَما أَخَذَتِ السَّفينةُ حُمولَتَها ، أَبْحَرَتْ بِنا إلى جُزُرِ القُمْرِ وَالجُزُرِ القَريبةِ مِنْها ، حَيْثُ بِعْنا ما مَعَنا بِثَمَنٍ مُرْتَفِعٍ ، وَاشْتَرَيْنا بِالثَّمَنِ أَخْشابًا وَأَشْياءَ أُخْرى غَيْرَها حَمَلْناها إلى البَصْرةِ .

وَقَدْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتي هٰذِهِ ، إلى وَطَني ، أَكْثَرَ ثَراءً مِمَّا كُنْتُ قَبْلَ قِيامي بِهٰذِهِ الرِّحْلةِ . وَفي بَغْدادَ ، تَصَدَّقْتُ عَلى الفُقَراءِ وَالمُحْتاجينَ وَقَطَعْتُ عَلى نَفْسي عَهْدًا أَلّا أَعودَ إلى البَحْرِ . وَلٰكِنِّي عُدْتُ فَأَخْلَفْتُ الوَعْدَ ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ غَدًا ، إنْ شاءَ اللهُ ، عَمّا فَعَلْتُ .

الرِّحْلَةُ السّادِسةُ

لَمْ تَكُنْ لي رَغْبةٌ في مُعاوَدةِ رُكوبِ البَحْرِ ، وَلٰكِنَّ رَغْبَتي الشَّديدةَ في مُشاهَدةِ بَعْضِ بُلْدانِ الهِنْدِ ، حَمَلَتْني عَلى عَدَمِ الالْتِزامِ بِما وَعَدْتُ . وَلَمْ تَمْضِ إلّا أَيّامٌ ، حَتّى جَهَّزْتُ نَفْسي لِلسَّفَرِ ، فاشْتَرَيْتُ حاجَتي مِنَ البَضائِعِ ، وَاصْطَحَبْتُ بَعْضَ الخَدَمِ لِمُساعَدَتي في رِحْلَتي . وانْطَلَقَتِ القافِلةُ بَرًّا ، وَزُرْنا كُبْرَياتِ المُدُنِ ، حَيْثُ كُنْتُ أَبيعُ فيها وَأَشْتَري . وَواصَلْنا سَيْرَنا حَتّى بَلَغْنا مَصَبَّ نَهْرِ الغانْجِ العَظيمِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ سَفينةً تُوشِكُ عَلى القِيامِ بِرِحْلةٍ طَويلةٍ إلى الجَنوبِ وَالشَّرْقِ .

كانَتْ تِلْكَ الرِّحْلةُ الطَّويلةُ مَشْؤومةً . فَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنا ريحٌ عاصِفةٌ ، فانْحَرَفَتِ السَّفينةُ عَنْ مَسارِها . وَتُهْنا في عُرْضِ البَحْرِ ، وَأَصْبَحْنا تَحْتَ رَحْمةِ الرِّيحِ ، تَسوقُنا أَمامَها ، كَما يَسوقُ الرّاعي قَطيعَ الغَنَمِ ، وَبِأَقْصى سُرْعةٍ .

وَلَمْ يَتَمالَكِ الرُّبّانُ نَفْسَهُ حينَ أَخَذَ يَصْرُخُ قائِلًا : « إنَّنا مَيِّتونَ لا مَحالةَ . » ثُمَّ انْتَزَعَ عِمامَتَهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ ، وَأَلْقى بِها أَرْضًا ، وَأَخَذَ يَضْرِبُ رَأْسَهُ بِكِلْتا يَدَيْهِ ، وَلِسانُهُ لا يَنْفَكُّ يَقولُ : « إنَّها نِهايَتُنا ! هَلْ تَرَوْنَ ذٰلِكَ الجَبَلَ الشّاهِقَ ؟ إنَّ فيهِ كَهْفًا يَبْتَلِعُ مِياهَ البَحْرِ بِما فيها مِنْ سُفُنٍ . وَلَمْ يُقَدَّرْ لإنْسانٍ – حَتّى الآنَ – أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ حَيًّا . »

الانسياق إلى الكهف

حاوَلَ ٱلبَحّارةُ أَنْ يَخْرُجوا بِالسَّفينةِ مِنْ بَيْنِ ٱلأَمْواجِ ٱلمُتلاطِمةِ ؛ وَلٰكِنَّهُمْ أَخْفَقوا . وَسُرْعانَ ما أَخَذَتْ سَفينَتُنا تَقْتَرِبُ مِنَ ٱلكَهْفِ ، وَمِياهُ ٱلبَحْرِ تَتَدَفَّقُ في جَوْفِهِ ، وَبِسُرْعةٍ مُتزايِدةٍ . وَما هِيَ إِلّا دَقائِقُ مَعْدودةٌ ، حَتّى ارْتَطَمَتِ ٱلسَّفينةُ بِجُدْرانِهِ ٱلصَّخْرِيَّةِ ، وَتَحَطَّمَتْ تَمامًا . وَاسْوَدَّ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَنا .

أَخَذْتُ أُحَدِّثُ نَفْسي قائِلًا : « إِمّا أَنّي قَدْ مِتُّ فِعْلًا أَوْ أَنَّني مُشْرِفٌ عَلى ٱلمَوْتِ . »

كُنْتُ في ظَلامٍ دامِسٍ ، لا أَرى ما يَدورُ حَوْلي ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ أَشَدَّ سَوادًا مِنَ ٱللَّيْلِ ٱلبَهيمِ . لٰكِنّي كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ ماءٍ يَجْري جَرْيًا سَريعًا ، وَأَسْمَعُ رِياحًا تَهُبُّ . وَهٰأَنَذا أَتَحَرَّكُ فَوْقَ جِسْمٍ صُلْبٍ ، وَلَيْسَ في ٱلماءِ . إِذًا أَيْنَ أَنا ؟ لَقَدْ أَصْبَحَتِ ٱلدُّنْيا ظَلامًا في ظَلامٍ ، وَطالَتْ رِحْلَتي في ذٰلِكَ ٱلمَكانِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلأَسْوَدِ . وَاسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَميقٍ .

سَرَنْديب

لَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلّا عَلى أَصْواتٍ تَصيحُ وَتَصْرُخُ حَوْلي . وَلَمّا فَتَحْتُ عَيْنَيَّ ، وَجَدْتُ نَفْسي راقِدًا عَلى ظَهْري فَوْقَ لَوْحٍ مِنَ ٱلخَشَبِ ، عِنْدَ ضِفَّةِ نَهْرٍ عَظيمٍ ، وَحَوْلي جَمْعٌ مِنَ ٱلنّاسِ يَنْظُرونَ إِلَيَّ بِدَهْشةٍ ، وَكانوا هُمْ مَصْدَرَ ٱلصُّراخِ ٱلَّذي أَيْقَظَني .

سَأَلْتُ ٱلواقِفينَ : « أَيْنَ أَنا ؟ » إِلّا أَنَّهُمْ لَمْ يُجيبوا عَنْ سُؤالي لِجَهْلِهِمُ ٱللُّغةَ ٱلعَرَبِيَّةَ . وَفي ٱلحالِ أَرْسَلوا يَطْلُبونَ رَجُلًا يَعْرِفُ ٱلعَرَبِيَّةَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ . وَحالَ وُصولِهِ أَنْبَأَني بِأَنّي في بِلادِ مَلِكِ سَرَنْديب (سريلانكا) فَحَمِدْتُ ٱللهَ عَلى أَنّي في بَلَدِ مَلِكٍ عَظيمٍ ، سَمِعْتُ عَنْهُ وَعَنْ بَلَدِهِ ٱلشَّيْءَ ٱلكَثيرَ .

أَضافَ ٱلرَّجُلُ قائِلًا : « نَجيءُ إِلى هٰذا ٱلمَكانِ لِتَحْويلِ قَنَواتِ ٱلرَّيِّ مِنْ هٰذا ٱلنَّهْرِ إِلى مَزارِعِنا . وَيَنْبُعُ ٱلنَّهْرُ مِنْ سِلْسِلةِ ٱلجِبالِ تِلْكَ . وَحَتّى هٰذِهِ ٱللَّحْظةِ لَمْ يَتَسَنَّ لِأَيِّ إِنْسانٍ مِنْ هُنا أَنْ يَصْعَدَ تِلْكَ ٱلجِبالَ ، كَما لَمْ يَجِئْنا أَحَدٌ مِنْ قِمَمِ تِلْكَ ٱلجِبالِ . وَٱلآنَ ، قُلْ لي : كَيْفَ وَصَلْتَ إِلى هٰذا ٱلمَكانِ ؟ »

إِلى ٱلمَلِكِ

رَوَيْتُ لَهُ قِصَّةَ رِحْلَتي ٱلسّادِسةِ ، وَقامَ هُوَ بِتَرْجَمَتِها إِلى ٱلحاضِرينَ ، وَكانَتْ عُيونُهُمْ مُثَبَّتةً عَلَيَّ . وَما إِنْ وَصَلَ إِلى نِهايَتِها ، حَتّى عَلا صُراخُهُمْ ، وَرَدَّدوا كَلِماتٍ لَمْ أَفْهَمْها ، تَرْجَمَها لي ٱلرَّجُلُ كَالتّالي : « عَلَيْكَ أَنْ تَقُصَّ حِكايَتَكَ عَلى ٱلمَلِكِ ، وَسَنَأْخُذُكَ إِلَيْهِ في ٱلحالِ . » ثُمَّ قَدَّموا لِيَ ٱلطَّعامَ وَٱلماءَ ، وَأَرْكَبوني جَوادًا . وَبَعْدَ مَسيرةِ ثَلاثةِ أَيّامٍ ، بَلَغْنا ٱلعاصِمةَ . وَقَدِ اسْتَقْبَلَني ٱلمَلِكُ في ٱلقاعةِ ٱلمَلَكِيَّةِ ، وَرَحَّبَ بي ، وَأَصْغى بِاهْتِمامٍ إِلى قِصَّتي . ثُمَّ أَمَرَ ٱلخَدَمَ بِتَخْصيصِ حُجْرةٍ لي تُجاوِرُ ٱلقاعةَ ٱلمَلَكِيَّةَ ، وَتَزْويدي بِأَفْضَلِ ٱلثِّيابِ ، وَتَقْديمِ أَشْهى ٱلمَأْكولاتِ ، وَتَوْفيرِ ما أَحْتاجُ

إليْهِ . وَكانَ يَسْتَدْعيني يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، لِيَسْتَمِعَ إلى أَحْداثِ رِحْلاتي ٱلسِّتِّ ، وَما رافَقَها مِنْ أَهْوالٍ وَمَخاطِرَ . وَلَمْ يَغِبْ عَنْ بالِهِ أَنْ يَسْأَلَني عَنْ بَغْدادَ ، فَحَدَّثْتُهُ عَنْها بِإِفاضَةٍ .

رِسالَةٌ مِنَ ٱلمَلِكِ

ذاتَ يَوْمٍ ، عَلِمْتُ بِوُصولِ سَفينَةٍ إلى ٱلعاصِمَةِ ، وَهِيَ في طَريقِها إلى ٱلبَصْرَةِ ، فَأَذِنَ لِيَ ٱلمَلِكُ أَنْ أَرْكَبَها . وَمَنَحَني ٱلهَدايا الثَّمينَةَ مِنْ ذَهَبٍ وَماسٍ وَجَواهِرَ وَغَيْرِها ، وَسَلَّمَني رِسالَةً مَلَكِيَّةً وَهَدايا ثَمينَةً إلى أَميرِ ٱلمُؤْمِنينَ ، ٱلخَليفَةِ هارونَ ٱلرَّشيدِ . وَكانَ عُنْوانُ ٱلرِّسالَةِ ٱلمَلَكِيَّةِ :

« مِنْ مَلِكِ سَرَنْديب ، وَمَلِكِ جُزُرِ ٱلهِنْدِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ، وَٱلمَلِكِ ٱلأَكْبَرِ ، إلى أَخيهِ ٱلخَليفَةِ هارونَ ٱلرَّشيدِ ٱلعَظيمِ . »

وَكانَتْ هَداياهُ إلى ٱلخَليفَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلجَواهِرِ ، وَأَشْياءَ أُخْرى فائِقَةِ ٱلجَمالِ ، جِيءَ بِها مِنْ غاباتِ سَرَنْديب وَمَزارِعِها ، لَمْ تَرَ ٱلعَيْنُ مَثيلًا لَها في أَسْواقِ بَغْدادَ .

وَكانَتْ رِحْلَتي إلى ٱلبَصْرَةِ مُمْتِعَةً ، خاصَّةً وَأَنا أَحْمِلُ رِسالَةً مَلَكِيَّةً وَهَدايا إلى ٱلخَليفَةِ هارونَ ٱلرَّشيدِ ، الَّذي أَحْسَنَ ٱسْتِقْبالي ، وَٱسْتَمَعَ إلى حِكايَتي ، وَتَلَطَّفَ في ٱلحَديثِ مَعي .

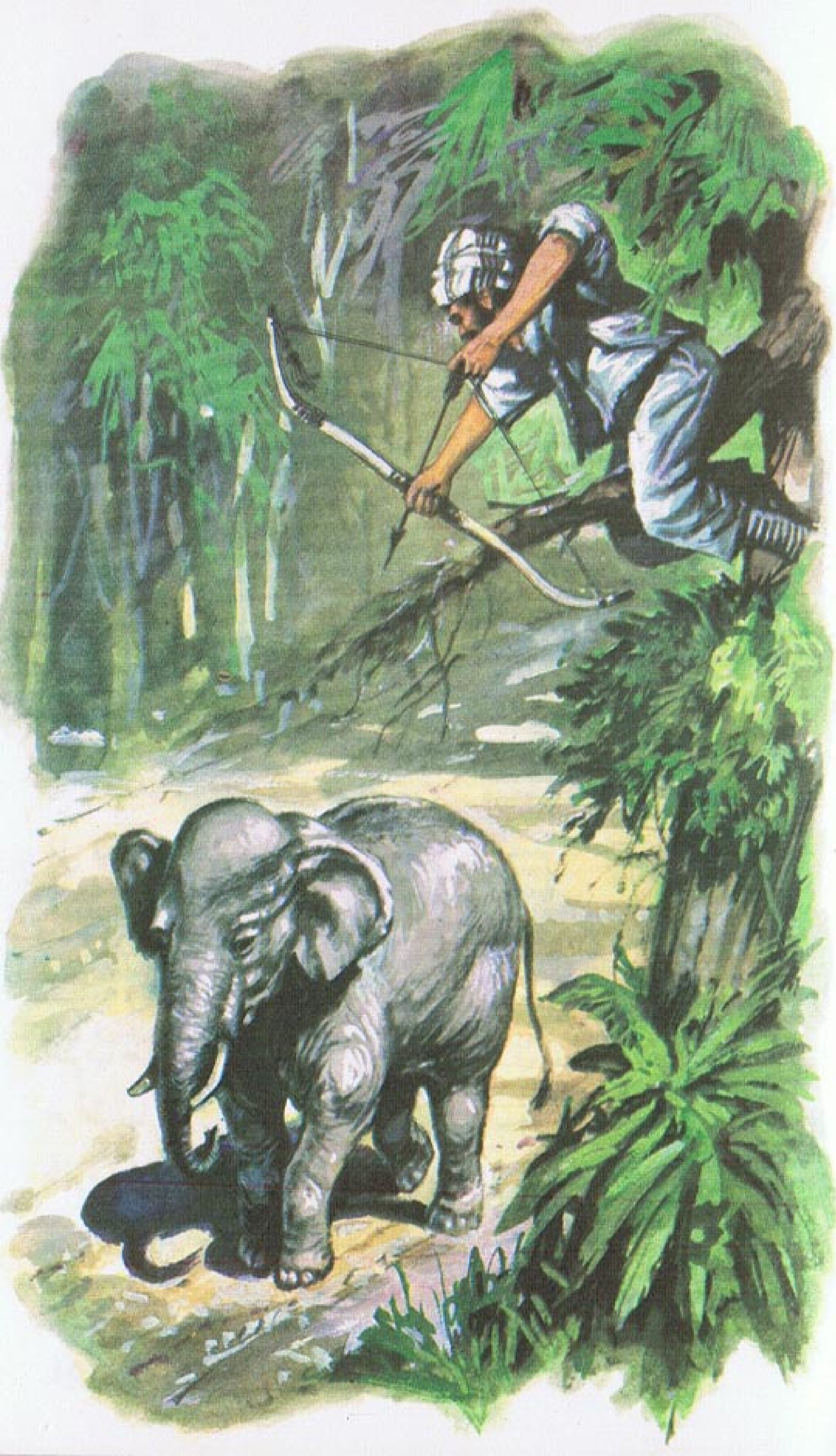
الرِّحْلَةُ السّابِعَةُ

ما كُنْتُ أَنْوي ٱلقِيامَ بِأَيَّةِ رِحْلَةٍ أُخْرى ، أَيُّها ٱلأَصْدِقاءُ . وَلا تَنْسَوْا أَنَّ تَقَدُّمَ ٱلسِّنِّ يَدْعوني إلى قَضاءِ ما تَبَقّى مِنَ ٱلعُمْرِ في وَطَني ، بَيْنَ أَهْلي وَأَحِبّائي ، وَٱلعَيْشِ في بَيْتي وَبَيْنَ حَدائِقي في مُنْتَهى ٱلسَّعادَةِ .

وَفي يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيّامِ ، وَأَنا مَعَ أَصْدِقائي ، بَعَثَ إِلَيَّ ٱلخَليفَةُ هارونُ ٱلرَّشيدُ يَسْتَدْعيني . وَلَمّا مَثَلْتُ أَمامَهُ ، قالَ لي : « أُريدُكَ أَنْ تَحْمِلَ جَوابي وَهَدايايَ إلى مَلِكِ سَرَنْديبَ . » فَأَجَبْتُهُ : « لَكَ مِنّي ٱلسَّمْعُ وَٱلطّاعَةُ ، ياأَميرَ ٱلمُؤْمِنينَ ! وَسَأَمْتَثِلُ إلى أَمْرِكَ في ٱلحالِ . »

ٱنْصَرَفَ رِجالُ ٱلخَليفَةِ إلى ٱلبَحْثِ عَنْ أَحْسَنِ سَفينَةٍ ، وَأَعَدّوها لِلسَّفَرِ . وَعِنْدَما طابَتِ ٱلرّيحُ ، أَبْحَرْتُ حامِلًا جَوابَ ٱلخَليفَةِ وَأَنْفَسَ ٱلهَدايا الَّتي يَجِدُها ٱلمَرْءُ في أَسْواقِ بَغْدادَ وَٱلإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَٱلقاهِرَةِ وَمُدُنِ ٱلمَغْرِبِ .

وَلَدى وُصولي إلى سَرَنْديبَ ، ٱسْتَقْبَلَني ٱلمَلِكُ أَحْسَنَ ٱسْتِقْبالٍ ، وَفَرِحَ بِلِقائي أَشَدَّ ٱلفَرَحِ . وَأَعْرَبَ لي عَنْ عَظيمِ سَعادَتِهِ بِخِطابِ ٱلخَليفَةِ وَهَداياهُ الَّتي لاقَتْ حُسْنَ ٱلقَبولِ لَدَيْهِ . وَكُنْتُ مَوْضِعَ رِعايَتِهِ بِما غَمَرَني مِنْ فَيْضِ كَريمِ أَخْلاقِهِ . وَٱسْتَأْذَنْتُهُ لِلسَّفَرِ ، فَحَمَّلَني ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلهَدايا ، وَفَعَلَ مِثْلَ ذلِكَ رِجالُ مَمْلَكَتِهِ .



اَلْقَراصِنَةُ

بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ إِبْحارِنا ، خَرَجَ عَلَيْنا مِئاتُ ٱلْقَراصِنَةِ في بِضْعَةِ زَوارِقَ ، وَاسْتَوْلَوْا عَلى سَفينَتِنا ، وَاتَّجَهوا بِها إِلى إِحْدى ٱلْجُزُرِ ، وَباعونا إِلى تُجَّارِها . وَكُنْتُ مِنْ نَصيبِ تاجِرٍ طَيِّبٍ أَحْسَنَ مُعامَلَتي .

سَأَلَني يَوْمًا : « هَلْ تُحْسِنُ ٱلرِّمايَةَ ؟ » وَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بِٱلإِيجابِ ، اسْتَأْنَفَ كَلامَهُ قائِلًا : « حَسَنًا ! فَالنِّظامُ ٱلْمُتَّبَعُ في هٰذا ٱلْبَلَدِ يُلْزِمُ كُلَّ أَسيرٍ ، بَعْدَ بَيْعِهِ ، بِأَنْ يَقومَ بِصَيْدِ ٱلأَفْيالِ . وَعِنْدَ بَيْعِ ٱلأَنْيابِ ، يَتَقاضَى ٱلْقَراصِنَةُ جُزْءًا مِنْ أَثْمانِها . وَسَآخُذُكَ ٱللَّيْلَةَ إِلى ٱلْغابَةِ لِتَبْدَأَ عَمَلَكَ هُناكَ . »

صَيْدُ ٱلأَفْيالِ

في ٱلْغابَةِ ، طَلَبَ إِلَيَّ صُعودَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ قالَ : « عَلَيْكَ بِالِانْتِظارِ إِلى حينِ اقْتِرابِ ٱلأَفْيالِ ، فَتُطْلِقُ بَعْدَها سَهْمَكَ عَلى أَحَدِها . وَسَأَجيئُكَ غَدًا صَباحًا لِأَعودَ بِكَ وَنابَيِ ٱلْفيلِ إِلى ٱلْمَدينَةِ . »

وَانْتَظَرْتُ فَوْقَ ٱلشَّجَرَةِ طَويلًا ، إِلى أَنِ اقْتَرَبَ فيلٌ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ، وَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ سَهْمًا فَقَتَلْتُهُ . وَفي ٱلصَّباحِ جاءَني ٱلتَّاجِرُ ، وَسُرَّ كَثيرًا عِنْدَما رَآني وَرَأى جُثَّةَ ٱلْفيلِ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ سُرورِهِ بِقَوْلِهِ : « يَسُرُّني أَنَّكَ مِنْ خيرَةِ ٱلرُّماةِ ، وَقَدْ أَحْسَنْتَ صُنْعًا بِقَتْلِكَ إِيَّاهُ ، فَلَوْ لَمْ تَقْتُلْهُ ، لَقَتَلَكَ . »

وَبَعْدَ ظُهْرِ ذاكَ ٱلْيَوْمِ ، لَقيتُ رَجُلَيْنِ أَسَرَهُما ٱلْقَراصِنَةُ مِنْ سُفُنٍ أُخْرى . وَكانَ عَمَلُهُما مِثْلَ عَمَلي وَهوَ صَيْدُ ٱلأَفْيالِ . وَدارَ ٱلْحَديثُ بَيْنَنا ، وَمِمَّا

قالَا : « إِنَّنا لا نَطْمَعُ في ٱلعَيْشِ طَويلًا ، حَتَّى وَلَوْ بَرَعَ ٱلواحِدُ مِنَّا في ٱلصَّيْدِ ، لِأَنَّ ٱلأَفْيالَ لا يُؤْمَنُ جانِبُها . وَٱلمَعْروفُ عَنِ ٱلفيلِ أَنَّهُ حَيَوانٌ ذَكِيٌّ ؛ وَلا غَرابَةَ أَنْ تَثْأَرَ ٱلأَفْيالُ لِقَتْلاها مِنْ قاتِليها . »

فَكَّرْتُ فيما سَمِعْتُهُ مِنْهُما ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : « يَنْبَغي أَلَّا أَصْعَدَ إِلى ٱلشَّجَرَةِ مَرَّتَيْنِ ؛ كَما يَجِبُ أَنْ أَتَحاشى إِطْلاقَ ٱلسِّهامِ عَلى قَطيعٍ مِنْها ، وَعَلَيَّ أَلَّا أُخْطِئَ ٱلهَدَفَ وَأَنْ أُصيبَ مِنَ ٱلفيلِ مَقْتَلًا . »

مَضى عَلَيَّ زَمَنٌ طَويلٌ وَأَنا أَصْطادُ فيلًا في كُلِّ لَيْلَةٍ . وَكانَ سُرورُ ٱلتّاجِرِ كَبيرًا ، عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّكَ أَفْضَلُ صَيّادٍ عِنْدي . وَاعْتِبارًا مِنْ هٰذا ٱليَوْمِ سَيَكونُ نَصيبُكَ نابًا مِنْ كُلِّ عَشَرَةٍ . وَإِذا تَجَمَّعَ لَدَيْكَ مِئَةُ نابٍ ، أَطْلَقْتُ سَراحَكَ لِتَعودَ إِلى بَلَدِكَ . »

وَعِنْدَما بَلَغَ ما لَدَيَّ قَرابَةَ مِئَةِ نابٍ ، كُنْتُ عَلى ٱلشَّجَرَةِ وَأَطْلَقْتُ سَهْمًا عَلى فيلٍ ، وَلٰكِنِّي لَمْ أُصِبْ مِنْهُ مَقْتَلًا .

وَفي ٱللَّيْلَةِ ٱلتّالِيَةِ ، امْتَلَأَتِ ٱلغابَةُ بِضَجيجِ مِئاتِ ٱلأَفْيالِ ٱلَّتي كانَتْ تَبْحَثُ عَنّي . وَسُرْعانَ ما أَحاطَتْ بِشَجَرَتي ، فَصَعِدْتُ إِلى أَعْلاها . ثُمَّ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ قَليلًا قَليلًا ، وَمَعَ هٰذا لَمْ أُحاوِلْ إِطْلاقَ سِهامي عَلَيْها . وَأَخيرًا لَفَّتْ خَراطيمَها حَوْلَ ٱلشَّجَرَةِ وَاقْتَلَعَتْها مِنْ جُذورِها ، وَحَمَلَني أَكْبَرُها عَلى ظَهْرِهِ . وَسارَتْ قافِلَةُ ٱلأَفْيالِ مِنْ وادٍ إِلى وادٍ ، وَبِشَكْلٍ عَسْكَرِيٍّ بِحَيْثُ كانَ ٱلواحِدُ وَراءَ ٱلآخَرِ .

وادي ٱلأَفْيالِ

وَفي وادٍ يَقَعُ بَيْنَ ٱلجِبالِ ، تَوَقَّفَتِ ٱلأَفْيالُ عَنِ ٱلسَّيْرِ . عِنْدَها تَذَكَّرْتُ ما قَدْ سَمِعْتُهُ في زَماني بِأَنَّ جُموعَ ٱلأَفْيالِ تَذْهَبُ إِلى مَكانٍ خاصٍّ وَتَموتُ فيهِ بِشَكْلٍ جَماعِيٍّ . وَكُنْتُ لا أُصَدِّقُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ ، ها قَدْ تَحَقَّقَ قَوْلُهُمْ . فَالمِئاتُ بَلِ ٱلآلافُ مِنَ ٱلأَفْيالِ قَدْ ماتَتْ هُنا . وَهاهِيَ ذي جُثَثُها تُغَطّي ٱلأَرْضَ .

أَحاطَتْ بِيَ ٱلأَفْيالُ وَعُيونُها جَميعًا مُصَوَّبَةٌ نَحْوي ، وَلٰكِنْ لَمْ يَمَسَّني أَحَدُها بِسوءٍ . وَكانَتْ عُيونُها هِيَ ٱلَّتي تُحَدِّثُني ، وَلَوْ كانَتْ لَها ٱلمَقْدِرَةُ على ٱلكَلامِ لَقالَتْ لي : « لِمَ تُطْلِقونَ ٱلسِّهامَ عَلَيْنا مِنْ أَجْلِ أَنْيابِنا ؟ أُنْظُرْ حَوْلَكَ . ماذا تَرى ؟ طَبْعًا ، تَرى ٱلأَنْيابَ ، وَهٰذِهِ ٱلأَنْيابُ لَسْنا بِحاجَةٍ إِلَيْها . هَيّا خُذْ مِنْها ما تَشاءُ وَقُلْ لِأَهْلِ ٱلمَدينَةِ أَنْ يَكُفّوا عَنْ قَتْلِنا . »

وَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجْعَلَها تَفْهَمُ أَنّي مُدْرِكٌ قَصْدَها . قامَتِ ٱلأَفْيالُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِإِرْشادي إِلى طَريقِ ٱلعَوْدَةِ إِلى ٱلمَدينَةِ . وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي اصْطَحَبْتُ ٱلتّاجِرَ إِلى مَقْبَرَةِ ٱلأَفْيالِ . وَهُناكَ نَظَرَ حَوْلَهُ وَنَظَرَ ، ثُمَّ قالَ لي : « في هٰذِهِ ٱلمَقْبَرَةِ مِنَ ٱلأَنْيابِ ما يَشْغَلُ تُجّارَ ٱلمَدينَةِ مِئَةَ سَنَةٍ . » وَتَوَقَّفَ سُكّانُ ٱلجَزيرَةِ ، بَعْدَئِذٍ ، عَنْ صَيْدِ ٱلأَفْيالِ .

وَقَدْ مَلَأُوا لي سَفينَةً بِأَنْيابِ ٱلأَفْيالِ كَيْ أَبيعَها في ٱلبَصْرَةِ وَبَغْدادَ ، ثُمَّ أَبْحَرْتُ إِلى وَطَني ، وَكانَتْ هِيَ ٱلرِّحْلَةَ ٱلأَخيرَةَ مِنْ رِحْلاتي .

مُغامَرات

السِّنْدِبادِ البَحْرِي

المغامرات المثيرة



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 211




ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net